obeikan.com

شَخْص مِثَالِي للمَوْت

الكتاب : شخص مثالي للموت

المؤلف : سالي عادل

تصميم الغلاف :

تدقيق لغوي : سارة صلاح

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي :

الطبعة الأولى : ٢٠١٥

٢٠ عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢ ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

شَخْص مِثَالي للمَوْت

روايـة

سـالي عـادل

للنشر
والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

رواية حائزة على أول جائزة بمسابقة هيئة قصور الثقافة فرع الرواية عام ٢٠١٢ بعد حجب جائزتين.

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى أمي وأبي

لأشخاص مثلكما وُجِد الإهداء .

وإلى س . ع .

شخص ليس مثالي لهذا الزمان..

obeikan.com

obeikan.com

أمي تقول إن (عبّاس العقّاد) يقول:

"أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة، وحياة واحدة لا تكفيني، والقراءة .دون غيرها .هي التي تعطيني أكثر من حياة".

والآن، إذ أجد صعوبة في أن أردم مجرىً في وجهي يسمى "دموع"، أو أشق أخدودًا يسمى "ابتسامة"، أجد أن (العقّاد) كان مُجحِفًا... لم يكن يعرف أن ثمة ألف طريقة أخرى لتعيش أكثر من حياة.

obeikan.com

obeikan.com

(١)

هل رأيت أمي... هاه!

هل رأيتها؟

دقق في ملامحي، إنها تشبهني، إذا أضفنا إلى جانبيّ فمي قدرًا من التجاعيد، وإلى عينيّ الدموع.. إنها صامتة قصيرة نحيلة إلى حد أنك لو صادفتها لما رأيتها.. فهل رأيتها؟

إنها في منتصف العمر لكنها تبدو في نهايته.. حزينة. لكنك لن تعرف هذا منذ الوهلة الأولى، لأنها تبتسم للجميع. وبالرغم من أنها أمي أنا، إلاّ أنها تصلح لأن تشعر أنها أمك أنت. فهل صادفتك امرأة بهذه المواصفات؟

سيدة في طيبة وبراءة ورقة أمي.. ماذا قد يحدث لها بالخارج؟

أن تُخطَف.. أن تؤذى.. تُقتَل. لكن أخبرك شيئًا، إن الأسوأ لم يأتِ بعد. فإن أسوأ ما يمكن أن يحدث لها: أن تبقى على قيد الحياة.

مشكلة الأيام أن بدايتها لا يمكن أن تنبىء عن نهايتها. هل يتصور قتيلٌ مثلاً أنه اليوم بالذات سيحمل لقب "قتيل"؟ كلنا نعرف أن الموت حق، لكن دعني أرى تعبير وجهك حين تدرك أن عليك الآن حالاً أن ترد الحق! كما أن الطريقة مهمة جدًا، فإن كنت قلت إن للحياة أكثر من طريقة، فإن الموت أوسع حيلة.

obeikan.com

أجلس في الغرفة مع أخي «يوسف»، هو ليس أخي لكني أحب أن أناديه أخي. شرد للحظة، ثم قال:

- أخبريني يا «سارة» كيف يبدو الـ "عَوّ"؟

هممتُ مفكرةً، صعدت إلى الفراش، تدثرت بالملاءة:

- يبدو متلفحًا بالغطاء، غارقًا في الظلام، وعيناه تلمعان. يقترب منك ويقول...

تقدمت ببطء وضخَّمت صوتي:

- كيف تريد أن تموت؟

سحبت يدي على رقبتي:

- ذبحًا، أم...

رفعت إصبعين أمام رأسه:

- رميًا بالرصاص، أم...

تمهلت قليلاً، ثم انقضضت عليه أداعب جانبيه وقدميه قائلة:

- أم دغدغة؟!

تعالت ضحكاته إذ يتلوى ويتفلت. دوَّى جرس الباب: ها قد جاء زوج أمي.

توقف أخي عن الضحك، بالأحرى "تجهَّم". لم ترتخِ عضلات وجهه تدريجيًا وإنما هكذا مباشرة كمن يضغط زِرًا: يعمل/لا يعمل. أمسك

كتابه المدرسي وجلس يرتعش. جلستُ قبالته أحصي كم مرة سعل فيها زوج أمي، وكانت بعدد نفضات جسد أخي.

أمي في الصالة، تفعل كل شيء من شأنه أن يرضي زوجها: عم «جعفر»، وهذا يمكن صياغته بعبارة أخرى: تفعل كل شيء من شأنه أن يهينها.

أمي، تحفظ عاداته جيدًا، حين يريد كوبًا من الماء تعرف أنه سيسكبه على وجهها ثم يطلب كوبًا أبرد، حين يريد أن يغسل يديه ستحمل إناءً معدنيًا وإبريقًا من الزمن القديم بكلتي يديها بالإضافة إلى الصابون والمناشف، لتجده قد استخدم منديلاً. وحين يريد أن يدخّن سيجارة يرمي بها إلى الأرض، فتلتقطها وتذهب إلى المطبخ وتشعل الموقد، ومنه تشعل السيجارة. وفي كل الأحوال هو يجلس رافعًا ساقيه إلى الطاولة أمام وجوهنا.

رمى عم «جعفر» بالسيجارة إلى الأرض. جرت أمي تلتقطها، لكن خطوتي كانت أسبق، مِلتُ إلى السيجارة. التقت عيني بعين أمي فابتسمت لها. التقطتُّ السيجارة، ووضعتها على الطاولة أمامه، ثم وضعتُ جوارها علبة من الكبريت.

أنزل زوج أمي ساقيه واعتدل سائلاً:

- ما هذا؟

قلت بنبرة محايدة:

- علبة كبريت تباع بعشرة قروش من نفس المحلات التي تبيع السجائر.

obeikan.com

هبَّ زوج أمي واقفًا، هوى بكفّه على وجهي:

- أستعرّفينني ما الكبريت يا ابنة الملاعين؟

ثم انهال ضربًا بكلتا يديه. كان يردد عباراته المعتادة: أنه من يصرف علينا، أننا لولاه لم نكن لنأكل.. وإذ تحاول أمي التخليل بيننا دفعها، لاعنًا تربيتها، رافضًا تدخُّلها، ومؤكدًا أن دورها قادم. وإذ أسقط، رفعني ورمى بي إلى الغرفة، وأغلق بابها من الداخل، ثم عاود عمله. ومن بين فرجات جسده، لمحت أخي «يوسف» يركض متسللاً إلى تحت الفراش كما الـ... فأر.

صاح به بينما يتابع لطمي:

- ألن تسترجل أبدًا يا روح أمك؟ دورك قادم!

أمي تطرق الباب من الخارج، وبعد قليل سأطرقه أنا من الداخل، حين يخرج هذا الوحش إليها، ويغلق بيننا بالمفتاح. أطرق بقبضة أوهن مما يجب. أصرخ بصوت أضعف مما ينبغي:

- دع أمي أيها اللعين، لا تقربها!

تتصاعد صرخات أمي، تتهاوى قبضتي عن الباب.. أنكتم.

***

فتحت عيني قليلاً، نظرت حولي: كنت على فراشي، وأخي نائم في فراشه، ويبدو من العتمة أن الوقت ليل. رفعت الغطاء وجريت إلى باب الغرفة فانفتح.. بحثت بعيني عن أمي، ناديت كثيرًا:

- أمي!

فتشت المنزل جيدًا: أنا، وأخي وقِطَع الأثاث.

نظرت إلى الساعة كانت الثالثة بعد منتصف الليل. كيف تغيب أمي عن المنزل حتى هذا التوقيت؟ التقت عيني بعينيّ شبيهتي في المرآة: كانت حزينة وثمة جروح بوجهها، لكن أين الدماء؟ أنا أذكر أن وجهي كان ينزف، لابد من بعض الدماء المتخثرة على وجهي، فأين هي؟ وأين أمي؟

أذكر أني حينما غبت عن الوعي كنت خلف الباب بالضبط فمن وضعني على الفراش وغسل لي وجهي؟ هل فعلت هذا أمي، هل فعلها زوج أمي؟ فأين هو...

وأين أمي!؟

علّه في سهرته مع رفاقه على المقهى كعادته. لكن أمي ليست من الطراز الذي يغضب أو يغادر البيت.. أمي لن تتركنا، وهي بلا أهل. أزحت ضلفة خزانتها، ها هي ملابسها، وكل شيء.

جريت إلى أخي، أوقظه: صرخ مذعورًا وطوّح بيديه لكني هدأته، ولما استعاد إدراكه سألته:

- هل تعرف أين أمي يا «يوسف»؟

حكَّ عينيه:

- لا! أين هي؟

تهاويت إلى الأريكة، خبأت وجهي بكفي... ربما بدأت في البكاء إذ أنهنه: أينها.. أينها.. لكنني توقفت سريعًا إذ لاح لي ما كنتُ أتحاشى تصديقه طوال الوقت: لا مفر من أن زوج أمي آذاها.

جلست متحفزة في الصالة، ولكأني ساعة أدق بقدمي في كل ثانية. ولما رن زوج أمي الجرس، فتحت له وبادرته بالسؤال:

- أين أمي؟

نظر لي بدهشة:

- ماذا؟ أليست هنا؟

لمحت سلسلة المفاتيح الملقاه على الطاولة. إذا كانت المفاتيح موجودة بالمنزل فكيف فتح بوابة العمارة التي تغلق في منتصف الليل. جال السؤال بخاطري فأطلقته إذ أنظر في عينيه بثبات:

- لماذا لم تدعوني لأنزل وأفتح لك البوابة ككل ليلة؟

- كانت مفتوحة.

ثم استدرك وكأنه فهم مغزى السؤال:

- هل تحققين معي يا روح أمك؟

قلت بغِلٍّ:

- أصدُقَك، لو اتضح لي أنك مسست شعرة من أمي لن أرحمك.

صفعني:

- اخرسي! لم يتبقَ إلّا العيال تهددني!

ثم ذهب إلى غرفته، وجلس على طرف الفراش البعيد مانحًا إياي ظهره:

- ولتعرفي أن أمك لن تبقى على ذمتي دقيقة واحدة بعد أن باتت ليلتها في الخارج.. تلك المنحلَّة لابد أنها الآن في...

التقطت سكينًا، جريت إليه حيث يجلس أجذب رأسه للخلف بيد، ويدي الأخرى تضع السكين على عنقه:

- لو آذيتها سأقتلك!

كان أدائه أكثر تمرسًا، كان يعرف أن التمنِّي لا يكفي للقتل. حملني بذراعيه من خلفه وأسقطني أمامه إلى الأرض. جذب السكين من يدي، وجذبني جذبًا إلى خارج المنزل وهو يردد شتائمه ولعناته المصحوبة بعبارة: "برّه"

في الصباح فتح الباب ذاهبًا لعمله، كنت جالسة إلى السلم، مسندة رأسي إلى السور. ضحك إذ رآني وقال:

- هذا هو! كنت أعرف أني سأجدك هنا!

قمت في صمت، ودخلت.

***

obeikan.com

أقبل أخي إليّ قائلاً:

- معلش يا «سارة»!

غاب للحظة، وعاد حاملاً شال أمي، وضعه على كتفي وجلس أمامي ملتقطًا كفيّ يدفئهما بين كفيه الصغيرين.. قضيت النهار بين الهاتف ومنازل الجارات: أسأل عن أمي.. ودومًا الإجابة: لا شيء.. والبوّاب يؤكد أنه لم يرها تخرج. نزلت إلى الشوارع أسأل المستشفيات وأقسام البوليس والمحلات والعابرين..

أمي.. قطعة الطُّهر والنقاء التي إن رأيتها فإن عينيك ستتجمدان عندها قليلاً؛ لا أحد يرى البراءة كل يوم.. فهل رأيتها؟

دومًا ما كانت أمي توصيني بالقراءة، كانت تتوقع أني حين أحصل على شهادة عُليا سيكون مصيري أفضل من مصيرها، ولكن يبدو أنني حصلت.. بالضبط.. على مصيرها.

ذاك الرجل الذي لا يجيد صنع شيئًا لنفسه أبدًا، بِدءًا من قيادة السيارة وحتى إشعال السيجارة، ومرورًا بالأكل والشراب وغسل اليدين وتحويل محطات التلفزيون والنزول لفتح باب العمارة ليلاً لصاحب السمو. ولا أدري، لماذا لا يحمل المفتاح في جيبه، أو يشتري ريموتًا للتليفزيون بدلاً من تشغيلنا عنده بهذا الشكل.

في الأيام التالية تعلمت أن أحمل كوب الماء وأنا أعرف أنه سينسكب في وجهي، وأحمل إناءً معدنيًا ثقيلاً وأنا أعرف أني سأعود به دون استخدام، وأشعل السيجارة بطريقة مبتكرة. ولم تكن تلك المشكلة: المشكلة أنه تمادى في اعتقاد أني زوجته إلى حد أن طلب ما هو أكثر.

هتف:

- يجب أن تعرفي أني ما كنت أتحملك إلا لأجل أمك، أما وقد غارت «سلوى» في داهية فليس من سبب يجعلني أؤويك وأطعمك وأكسيك إلاّ...

قلتُ بهدوء:

- إلاّ ماذا!؟

تلعثم في الكلام:

- إلَّا.. ما تعرفينه.

- هل تخجل من مصارحتي؟ هذه أول مرة أرى حيوانًا خجولاً.

- اخرسي!

وكعادته، جذبني من شعري، ورمى بي إلى الخارج مرددًا سبابه، ولعناته، وعبارته الأثيرة: "برّه".

***

في الصباح فتح الباب وضحك شامتًا إذ ينزل:

- هذا هو! كنت أعرف أني سأجدك هنا!

شعرت بشيءٍ من "ديجا-فو".. قمت إلى الداخل، بحثت في الأدراج عن مفتاح مُهمَل، ونزلت صنعت نسخة منه. عدتُ رأسًا إلى غرفتي: صعدت إلى كرسي وأسقطت من فوق الدولاب حقيبة سفر. فزع أخي:

obeikan.com

- «سارة»! ماذا تفعلين؟

دسست بالحقيبة مجموعة من الملابس، ملاءة، مرجعًا دراسيًا، وبعض النقود. تعلق أخي بطرف كمي، وبدأ في البكاء:

- «سارة»! لا ترحلي!

حررت كمي، خرجت إلى غرفة أمي، حصلت على سوارين ذهبيين من الدولاب، وإن كنت أتوقع أن أجد أربعة. قال أخي بصوت منفطر:

- «سارة»... لا تتركيني.. سيؤذيني.

- أنت ابنه، لن يؤذيك.

يعاود التمسح بي والتوسل:

- لا تتركيني وحدي، خذيني معكِ.

التفتُّ إليه بحدّة، التقت الدموع في عيني بالدموع في عينيه، حوَّلت بصري:

- وأنت لست أخي.

وقعت عيني على رواية «سارة» لـ (العقّاد) على كومود أمي. التقطتها ومددت الخُطى.

* * *

(٢)

قالت لي جارتي الجديدة «نعيمة» :

- أنت لا مشكلة لكِ، أنت تصنعين المشاكل يا «سارة».. يموت أبوك فتجدين أبًا بديلاً يصرف عليك ويربّيكِ، ويعلّمك، عندما تجوعين تجدين طعامًا، وعندما تمرضين تجدين العلاج، وفي الشتاء كالذي نحن فيه تجدين الدفء، ثم تتمردين وتهجرين البيت...

شددت على المقطع:

- البيت يا «سارة». البيت! انظري حولك: هل تلحظين أن كل هؤلاء يفتقدون البيت؟

نظرَتْ إلى الفضاء وكل شواهد القبور المرصوصة:

- هنا يا «سارة»، الناس فئتان: موتى، وأحياء. إن كانوا موتى، فقد أراحوا واستراحوا، وإن كانوا أحياء: فالطبيعي أن يموتوا من الجوع، فإذا حصلوا على ورقة بعشرة جنيهات: يموتون من الفرح. أما لو ضرب معهم الحظ وأمسكوا ورقة بمائة جنيه.. يموتون الميتة الطبيعية.

ارتجف خدي عن ربع ضحكة.

جئت هنا لأنه المكان الذي أعرفه منذ صغري.. عرفته في البداية لما مات أبي وأنا بعد في الثالثة. ثم عرفته فيما بعد، لما كنت أرتكب خطأ،

obeikan.com

فيحملني زوج أمي بيد، وبيده الأخرى يحمل صندوقًا من الورق المقوى. ويأتي إلى هنا، يفتح المقبرة التي اشتراها لنفسه، ويرمي بي إلى الداخل، وإلى جواري يضع الصندوق. أحاول أن أخرج فيركلني، ويغلق الباب مؤكدًا:

- سأربّيكِ.

يصل مفتاحه في الباب، أصرخ حتى توقظ صرخاتي الموتى.. أسمع أصواتًا تحاول أن تثنيه، أن تستعطفه، فيرد عليهم بحدّة:

- لا أحد يتدخل، ابنتي وأربيها.

أصرخ، أطرق الباب، أسمع صوت سيارته تبتعد، أوقن أنه لا يسمعني، ومع ذلك أصرخ وأستجديه. ولما يهدّني التعب أجلس في أقرب مكان من الباب.. لا أحاول النظر إلى الداخل، لأني في كل مرة نظرت، رأيت خيالاً يتحرك.. أحاول أن أنام.. لكن النوم لا يأتي في حالات التأهب القصوى، وأنا كنت أتأهب للـ"عَوّ"!

يقرصني الجوع، فأنظر إلى الصندوق... بالأحرى، في المرة الأولى فقط نظرت إلى الصندوق، لأن عقلي لم يكن قد كوّن ارتباطًا بعد عمّا يحويه. على أي حال، كانت فئران.. في كل مرة كانت فئران. ولكني في المرات التالية لمّا كنت أصر على عدم فتح الصندوق، كانت تقوم هي بقرض الورق المقوّى وتخرج لي.

ثمة بقايا من الصناديق لازالت بالداخل.. لكني لا أستطيع أن أزيحها، لأن أولى قواعد السكن في هذا المكان أن تترك كل شيء كما هو عليه حتى لا يشك أصحاب المقبرة أن غريبًا مرَّ هنا في زيارتهم التالية. كما أني لا

أستطيع إفراغ حقيبتي لأن ثاني القواعد أن تكون حقيبتك جاهزة حتى تأخذها في يدك إذا ما تعرضت لوصول مفاجىء لأصحاب المقبرة. وثالث القواعد أننا، في وقت الزيارات المفاجئة، إخوة، وأن مقبرتي يجب أن تكون مفتوحة لكل الجيران الذين يتعرضون لهذا المأزق، حتى يعودون إلى مسكنهم بسلام، عندما يرقد الميت بسلام. يستثنى من هذه القواعد من يحصل على إذن من صاحب المقبرة، أو طبعًا: صاحب المقبرة.

تظن «نعيمة» أن المقبرة التي أنا بها ملوكي:

- هذا ليس"حوش". أنتِ تسكنين فندق خمس نجوم. أربع غرف واستراحة وحمَّام.. وكله من الرخام. صنبور مياه، وصرف صحي وصالون.. يبدو أن زوج أمك ثري جدًا.

- نعم.

- فقرية.

ثم لمعت في عينها فكرة، لكزتني في كتفي باسمة:

- لم لا تعرفيني به؟

ابتسمت. سرحت في الأفق: الناس تتعايش مع الموت بشكل جيد جدًا. ثمة تليفزيون مثبت إلى شاهد قبر، ثمة غسيل منشور على حبل بين شاهدين. والأطفال تلعب الاستغماية وشيكا ع العالي والكراسي الموسيقية ارتكازًا إلى القبور..أهـ... أنا نفسي مرتكزة الآن إلى أحد الشواهد.. استقمت.

Opelikan.com

تابعتُ بعيني لعب الأطفال بشيء من الحنين، لم يكدّرني سوى تلك النظرة الثاقبة التي اخترقتني من الجانب. التفتُّ فجأة إلى مصدرها: كانت طفلة مثلهم.. أعني أنها لم تكن مثلهم، لم تكن تلعب مع الأطفال، وكانت تنظر إليَّ بثبات شديد، وكأنها تريد أن تلفت انتباهي، أو تنتظر أن ألتفت لها. لم تطرف عينها، بالرغم من أنها لم تكن على أقصى اتساعها، كانت منكسرة قليلاً.. جذبت كُمّ «نعيمة» وأشرت إلى حيث الفتاة:

- مَن هذه؟

تعجبت «نعيمة»:

- مَن؟

التفتُّ إليها:

- تلك الفتاة الواقفة هنـ...

لكني إذ أنظر إلى حيث أشير، قضمت عبارتي؛ لم أعد أرى الفتاة. سألتني «نعيمة»:

- المهم، ما الذي تنوين فعله؟

- سأبحث عن أمي.

- ومن أين تصرفين؟

- سأترك الدراسة وأبحث عن عمل.

- وهل كانت أمك لتسعد بهذا؟

Openikan.com

- هاه!

خرج عم «قرقر» ففض لعب الأطفال، وصاح بصوت يرج المكان:

- كلٌّ على الحوش الخاص به. عندنا زيارة.

وعم «قرقر» هو رئيس جمهورية المقابر، أو بعبارة أخرى: التُربَي. وبالإضافة إلى أصناف التجارة التي يمارسها على الميت قبل دخوله القبر، فإنه أيضًا يمارس أصناف التجارة التي تقوم عليه "بعد" دخوله إلى القبر. كما أن إيجار هذه الأحواش يصب في جيبه. وبالرغم من أني أملك مفتاح المقبرة، إلا أنه أصر أن يتقاضى مبلغ مائة وخمسين جنيهًا شهريًا، مؤكِّدًا أن المفتاح الذي أملكه يسمح لي بسكناها بعد موتي وليس قبله.

رأيت إحدى العائلات تنتقل بمتاعها إلى حوش آخر. قالت «نعيمة»:

- يبدو أن هناك زيارة لحوش عائلة (الجمّال).

دخلت إلى مسكني. أخرجت رواية "سارة" وبدأت في قراءتها. كما تلحظ، أسمتني أمي «سارة» تيمنًا ببطلة الرواية. هي مهووسة بها.. ربما لأنها مهووسة بـ (العقّاد).. وهذه هي روايته الوحيدة.

أمي، إذا صادفتك، قد لا تراك. لأن مقدار النور في عينيها بالكاد يمكِّنها من القراءة في المصحف، أو في رواية «سارة»، إذا قرَّبت الكتاب جدًا لعينيها..

أمي.. هل رأيتها؟

opoeiya.com

أبدًا لم تعجبني الرواية، وأبدًا لم أحاول أن أخبر أمي بالعبارة السابقة. على أي حال، صرت أجد فيها بعض السلوى.. يكفي أن أعلم أن العبارات التي تمر عليها عيني الآن مرت عليها عينا أمي الطيبتان.

فقط، يشتت انتباهي صوت الصراخ بالخارج. صوت النحيب. أطرافي تتخدر.. أغلق الكتاب. بصعوبة أقف، أتسلل إلى الخارج. أستند إلى جدار حوش عائلة (الجمّال) وأتلصص على الداخل: الرجال يحملون جثمانًا ملتفًا بالكفن الأبيض وينزلونه إلى القبر. سيدة في منتصف العمر تردد عبارات الأسى على ابنها. تقول إنه كان شابًا، تقول إنه كان جميلًا، وكان حنونًا عليها.

أدرت عيني في عيون المحيطين.. عم «قرقر» التُرَبي، الشيخ (مُنجد) المقرىء، بائع الورد، صانعة الشاي، والأطفال: برود الاعتياد في كل العيون. اصطدمت عيني بعيني «نعيمة» :

- أول ميّت ترينه، هاه؟ أعرف أن تأثير رؤية الميت الأول ليس سهلاً، ويقولون: إن الميت الأول كالحب الأول لا يُنسَى.

وضحكت ضحكة قصيرة، ثم قالت بجدّية:

- تعرفين، الميّت الجديد وبالٌ على ساكني الحوش.. زيارات في الأعياد والمواسم وطلعات رجب، وأربعين، وسنوية.. بالإضافة لأيام الجمعة.. لازالوا يذكرونه. فيما بعد، حين يذكرونه، يستثقلون قراءة الفاتحة.

تجاوزتها، جريت إلى مقبرتي. وضعت سدادات بأذني، وفتحت الرواية. حاولت القراءة هذه المرة.. لكني أبدًا لم أستطع؛ كان جسدي كله يرتعش، وعقلي مشغول باثنين: ذلك الجميل الحنون الذي مات شابًا، وأمي.

تلك الجميلة الحنونة التي...

ما احتمال أن أمي على قيد الحياة.. ما معنى كلمة "احتمال".. إذا فكرت فيها للحظة ستجد أنها بلا معنى: قد/وقد لا.

أبدلت الرواية بمرجعي الدراسي، بالرغم من أني قررت عدم متابعة الدراسة، لكن يظل العلاج من خلال التحليل النفسي أمرًا مدهشًا. فتحت الكتاب وبدأت القراءة.

قال لنا مرة د. (أشرف أبو النور) أستاذنا في الجامعة إن مشكلة هذه الطريقة في العلاج أنك لا يمكنك أبدًا أن تصدّق المريض. ليس لأن المريض كاذب في الأعراض التي ينقلها لك. ولكن لأن الأعراض ذاتها كاذبة.

د. (أشرف) رجل رائع. يملك علاجًا لكل مشكلة، ودومًا يبتسم.. وأظن أن حياته متزنة جدًا. أمي أيضًا تشرق حينما تراه على شاشة التلفاز يقدم برنامجه الشهير "شارع السعادة". لا أدري إن كانت عدوى الإعجاب بهذا الرجل انتقلت مني إلى أمي، أو منها إليّ. فقط أستشعر الفخر في عينيها عندما أجدها تشاهد هذا البرنامج فأصيح بها:

- إنه أستاذي في الجامعة.

- حماه الله! وهل ترينه وجهًا لوجه؟

- بالتأكيد، ولكن لتريه في الواقع تحتاجين نقودًا كثيرة. تعرفين كم يأخذ في الجلسة الواحدة بعيادته؟

وأبسط أصابعي العشرة:

- مائة جنيهًا.

oboeikan.com

تضممني وتقول:

- ليتني أراكِ مثله ذات يوم.

مشكلة هذا الفرع من العلم أنه يعرِّفك إلى أمراض لم تكن تخطر ببالك، والمعرفة -بحد ذاتها- قد تجلب لك الوبال. الآن، أنت ستربط بين أي عرض عابر يلم بك وبين الأعراض الخاصة بهذا المرض أو ذاك. غدًا، ستكون على يقين أنك مريض متقدم من مرض ما. ذاك المرض الذي لم تسمع عنه من قبل قَط.

أسند ظهري إلى جدار الحوش. أحك خلف عنقي بعنف. أقرأ:

"ويسمع مريض الفصام أصواتًا وهمية"

يصل لأذني عويل السيدة والدة الميت. أضغط سدادات أذني جيدًا، وأتابع:

"وقد يصاحب الهلاوس السمعية هلاوس بصرية."

ألمح من الشبّاك فتى، له ملامح جذّابة. يقع بصره عليَّ بالمثل، فأسقط نظري إلى الكتاب:

"ولصاحب الشخصية الفصامية علاقات اجتماعية مضطربة"

أسمع صوتًا لا أستطيع تمييزه بسبب السدادات، أنظر إلى النافذة حيث يقف الفتى يتحدث إليّ، أزيح السدادات، وأصغي:

- هل أنتِ بخير؟

أرفع يدي بعصبية أساوي خصلات شعري، لكني في الواقع بعثرتها. أقم إلى النافذة، أنظر في عينيه لحظة، وأغلقها.

* * *

(٣)

عندما استشعرت رحيل أهل المتوفي خرجت. ذهبت إلى صانعة الشاي:

- أريد كوبًا من الشاي من فضلك.
- حاضر يا ابنتي، اجلسي ريثما أعدّه.

وأشارت إلى أحد الأحجار، فجلست. قالت:

- وأنتِ يا ابنتي، لماذا أتيت للسكن هنا، أليس عندك أهل؟
- تقريبًا.
- ولا يهمك، كلنا هنا أهلك.

وسلّمتني كوب الشاي. حضرت طفلتها ونظرت لي إذ تتمسح بثوب أمها، فداعبتُ شعرها، سألتها:

- ما اسمك؟
- «لوزة».
- وهل تدرسين يا «لوزة»؟
- نعم، وأنتِ؟

obeikan.com

- وأنا، أدرس علم النفس.

- يعني ماذا تعملين بعد التخرج؟

- محللة نفسية.

- يعني طبيبة نفسية؟

- بل محللة نفسية، لا أعتمد على العقاقير، ولكن أستمع إلى المريض وأحلل سلوكه وأفكاره وأعالجه من خلال هذا التحليل.

تدخلت والدتها:

- إذًا يا دكتورة والنبي افحصي «لوزة». إنها تملك أفكارًا غريبة وتصر أنها ثرية ولديها عمارات...

وتروح في نوبة ضحك:

- لا أدري أين هذه العمارات التي لم يرَها أبوها في أحلامه.

أبتسم على استحياء:

- أنا لست طبيبة.

تقول «لوزة» بحماس:

- نعم، نعم لديّ عمارات. ومنحت شقة لأبي وأمي كي نسكن بها، ومنحت شقة لكل واحد من أصحابي، كي ننتقل كلنا ونبتعد عن هذا المكان ذي الرائحة الكريهة والذي يسرب إلينا الماء في أيام المطر، والعمارة الجديدة واسعة، وبها أسرّة كثيرة، وبها كمبيوتر، وبانيو، وتطل على شارع

obeikan.com

واسع ليس فيه شواهد قبور. وقد منحت شقة لكل واحد، كل واحد، ما عدا عم «قرقر».

ثم تفكر لحظة وتقول:

- وسأمنحك شقة يا أبلة.

ضحكت الأم وقالت:

- ذات مرة كانت تسمع شكوى خالتها من أن زوجها يضربها ويشتمها وهو يعرف أنها لا تستطيع أن تترك البيت لأنه ليس لها مكان آخر تذهب إليه. وفي الصباح، وجدتها تقول إنها حصلت لخالتها على شقة. ومنذ تلك اللحظة لم تتوقف عن منح الناس الشقق.

داعبتُ شعر الفتاة. علّها بنَتْ عماراتها في أحلام يقظتها، فحصلت بذلك على حياتها الأخرى. أعتقد أن «لوزة» في مأزق في الحالتين: إن هي انغمست في خيالها، ستنصدم عندما تعود للواقع. وإن لم تنغمس في الخيال، ستنصدم منذ البدء.

منذ اللحظة الأولى، عرفت أني سأجد هنا مرتعًا من الأمراض، تلمع لها عيون الأطباء النفسيين. توهجت عيني إذ أنظر إلى الفتى: ذات الفتى. اقترب، جلس جواري وقال:

- شاي وحياتك يا أم «لوزة»!

قمت سريعًا. منحتها حساب الشاي، وانصرفت. دقَّ قلبي بعنف إذ أسمع دقات حذائه تتبعني، استوقفني:

- مهلاً! لماذا تعاملينني هكذا؟ ألسنا جيرانًا؟

توقفت:

- ماذا تريد؟

- أن نتعرّف.

- لا وقت لدي للتعارف.

- وما يشغلك؟

- أبحث عن أمي.

- ماذا؟ هل تاهت أمك؟

قالها ببساطة، نظرتُ إليه باستخفاف، ومشيت. قال:

- صدّقيني أنا لا أسخر، فقط لا أفهم.

- نعم.. اختفت.

- إذًا، هل تحتاجين مساعدة في البحث؟

- أهـ... أنت غريب.

بسط يديه وقال:

- هل تقصدين غريب الأطوار، أم غريب الصلة عنكِ؟

فكرت لحظة.. أنا قصدت الأولى، لكن في الواقع:

- الاثنان.

- ربما لن يبدو الأمر غريبًا إذا عرفتِ أنني أيضًا فقدتُ أمي.

obeikan.com

وقع في يدي:

- كم مؤسف! وكيف فقدتَها؟

- لذلك شرح يطول، لكن احكِ لي أنتِ ما حدث مع أمك..

- أمي...

تلك العذبة التي تستطيع أن تُوجِد السعادة من العدم. أمي تجيد آلاف الأشياء، وتفعلها من أجلي: يمكنها أن تداويني، تحممني، تطمئنني بنظرة عين. تعلمني، تقوّمني، وتربيني في أحلك الظروف. كما تجيد أن تحتمل الإهانة دون أن تشتكي. هي فقط لا تجيد شيئًا واحدًا: النبوءة. لم تستطع أن تعرف أن زواجها بـ عم «جعفر» سيحيلها إلى خادمة. ولا أن تتوقع أن ذاك اليوم الذي فارقتني فيه، ستختفي فيه. ولا كانت تتصور أن يأتي يوم يصبح نعتي أنا بـ«سارّة»: مزحة كبيرة.

قال الفتى:

- هل أبلغتم البوليس؟

- نعم.. لكنَّا لم نحظَ منه بشيء.

- هل معكِ صورة لها؟

- لا..

- يجب أن نحصل على صورة ونصنع نسخًا منها نعلقها في الأماكن العامة.

obeikan.com

- أخشى أن هذا لن يفيد. هي ليست طفلة تائهة. أنا أفكر أن زوج أمي قتلها.

- هناك احتمالات كثيرة جدًا يا «سارة».

نظرت للأرض وزفرت:

- صحيح..

رفعت رأسي فجأة:

- هل قلت «سارة»؟ وكيف عرفت اسمي؟

- أظن أنك للتو قلتِ أن نعتك بـ«سارة» مزحة كبيرة.

- أحقًا قلت بصوت مسموع؟ ظننتها خاطرة.

هززتُ رأسي أطرد الفكرة:

- مهما يكن!

وقعت عيني على الفتاة الصغيرة التي رأيتها في الصباح. لازالت معلّقة عينيها بي.. لا أعرف لماذا تنظر لي هكذا، إن نظراتها مربكة وغير مبررة.. هل كنت أعرفها ذات يوم ونسيت؟

ملت إلى الفتى، وقلت له:

- انظر، هذه الفتاة لا ترفع عينها عنِّي منذ رأتني.

استدار وسأل:

- أين؟

obeikan.com

- هناك إلى جانب «نعيمة».

- جانبها؟ أي جانب؟ إن للإنسان جانبين لا جانب واحد.

رفعت عيني إليه، أدرت عيني في الأرض:

- ألا تراها؟ هل تعني أني أتوهم، وفي الأخير سأُجَنّ؟

ضحك برفق:

- بل أمزح معك. نعم أراها. الصامتة دائمًا. أليس كذلك؟ هي طفلة خرساء، يتيمة الأبوين ولم يعد لها أحد وطردت من البيت فجاءت لتعيش هنا إلى جوار أبويها. على الأقل هي تملك الحوش فلا أحد يطردها منه.

- مسكينة.

أن تكون بلا أهل، بلا صوت، أن تكون وحيدًا في الدنيا، بل ووحيدًا في المقابر.. ومع هذه المعطيات أن تكون طفلاً.. نتيجة مؤلمة! أردت أن أذهب لمواساتها، فاستأذنت من رفيقي-يجب في المرة التالية أن أعرف اسمه- واتجهت إليها. لكنها لمّا لاحظَتْ اقترابي منها ذُعِرَت، وخطت خطوات للوراء. توقفتُ لحظة. توقَفَتْ. تابعتُ الخطى، فرت بخطوات أسرع.. وراحت تركض في اتجاه منطقة مهجورة من المقابر.. توقفتُ. لم أرد أن أثير ذعرها أكثر. استدرت.

في بيتي.. قررت أن أنام باكرًا، ومنذ الصباح، سأذهب إلى العمارة، وأسأل جارتنا ست «فتحية» علَّ عندها صورة لأمي، وإن لم أجد أذهب إلى القسم وأحصل على نسخة من الصورة المرفقة بمحضر التغيب. كما

أحتاج إلى بيع السوارين لأحصل على بعض النقود. ولعلَّ الله يبرد قلبي بخبر عودة أمي.

في كل لحظة، أشعر أن جزءًا مفقودًا مني. بالضبط لا أدري أين؟ ربما محل القلب؟ ربما العين؟ الضلوع؟ كأني الآلة التي لا تعمل قبل إتمام أجزائها. أمي.. لم تنم ليلة قبل أن تطمئن إلى نومي.. أمي، وسادتي وفراشي وغطائي..

أمي، هل رأيتها؟

* * *

obeikan.com

(٤)

في الصباح، توجهت إلى العمارة. طرقت باب ست «فتحية» التي تسكن أمامنا مباشرة. رحبّت بي بشدة، لكنها خفضت صوتها سريعًا، وسحبتني إلى الداخل:

- انتبهي جيدًا؛ لا تدعي أحدًا يراكِ.

- ولماذا هذا الحذر، هو ليس أبي، وليس له كلام عليَّ.

نظرت إلى الأرض:

- يا ليت يا ابنتي! هو أبلغ البوليس عنكِ، واتهمك بسرقة أربعة الأسوار الذهب الخاصين بأمك.

- الوغد! وهل كان له شيئًا من الذهب! غير أنهما كانا اثنين فقط لا أربعة. وقدّرت أن أمي كانت ترتدي الاثنين الآخرين.

- أعرف أنهما كانا اثنين، أنا ذهبت مع أمك لبيع السوارين الآخرين في وقت سابق.

- ولماذا باعتهما؟

- أظن أنها قالت أنها تحتاج لزيارة طبيب، أو شيء كهذا.

obeikan.com

- ولكنها لم تشكِ من شيء قَط.. ألا تعرفين أي طبيب؟

- لا.. على عيني..

- ولا يعرف زوج أمي أنها باعتهما؟

قالت في سرعة:

- لا، كان ليقتلها.

خرقت الكلمة أذني، نظرت إليها بحدّة، ارتبكَتْ:

- عفوًا يا ابنتي، انتظريني سأعدّ لك الشاي.

أمسكت بمعصمها:

- لا، شكرًا يا ست «فتحية»، أخبريني: أليست هناك أي أخبار عنها: عادت.. اتصلت.. أي شيء..

- يا ليت!

- والبوليس، ألم يتوصل لشيء؟

- أبدًا.

زفرتُ:

- وكيف حال «يوسف»؟

- لا أراه إلا حزينًا، لا هو يستطيع أن يمنع دمعته، ولا «جعفر» يرحمه إذا بكى.

قمتُ:

- أريد أن أراه.

أمسكتْ بمعصمي:

- لا داعي يا ابنتي.

- ولِمَ؟ زوج أمي في العمل الآن، ولابد أن «يوسف» وحده في المنزل.

- لا..

- لماذا؟ هل ذهب للمدرسة.. أظن إجازة منتصف العام لم تنتهِ بعد.

- بل في المنزل. لكن ليس وحده؛ معه زوجة أبيه.

أدرت عيني، تساءلتُ بدهشة عن شيء بديهي وليس بديهيًا في الوقت ذاته:

- أمي؟

- لا..

أحنت ست «فتحية» رأسها:

- زوجته الجديدة.

سقطتُ على الكرسي.. قلّبتُ كفيّ:

- الرجل الناقص! يتزوج ولم يمر على اختفاء أمي أسبوع؟

قالت ست «فتحية»:

obeikan.com

- أنا أشفق على «يوسف»: أبوه، أكثر أهل الأرض شرورًا، وأمه ميتة، ولما يعوّضه الله بزوجة أب حنونة تختفي. وفي الأخير: ها قد حصل على زوجة أب كالحيَّة تلسع في كل ثانية.

- أخبريه يا ست «فتحية» أنني سأعود من أجله، وحين أحصل على عمل وحياة مستقرة سآخذه ليعيش معي. طمئنيه، وأخبريه أن «سارة» لن تتركه.

- لا تعشّميه يا ابنتي.. أنتِ ظروفك صعبة.. ومهما كان: «جعفر» يُدعى "أباه".

تذكرت سبب زيارتي:

- هل لديك صورة يا ست «فتحية» لأمي؟

فكرت قليلاً:

- لا يا ابنتي.. على عيني.. أسأل لكِ «يوسف».

- لا، أرجوكِ، دعي «يوسف» خارج هذا الموضوع، وإلَّا أذاقه زوج أمي الويل.

ثم أشرقت وقالت:

- خلاص، زوريني غدًا، أكون حصلت لكِ عليها.

- ماذا ستفعلين؟

- أبدًا.. سأتودد إلى زوجته.. وأخبرها أني أريد أن أساعدها في ترتيب أغراضها، فهي لازالت تنقل أشياءها.. وأبحث لكِ عن الصورة.

-    إذًا ابحثي في الصندوق أسفل السرير. إن أمي تحتفظ فيه بأوراقها وأشيائها الهامة.

ثم قمت، وضممتها بشدة:

-    أنا أقدِّر مساعدتك جدًا جدًا.

على الباب، انفتح الباب المقابل، وبرزت الزوجة الجديدة تلتقط صفيحة القمامة. أعليت ياقتي، أحنيت بصري، ومضيت. ومن خلفي أسمع ست «فتحية» تقول بطريقتها المبالغة في الترحيب:

-    أهلاً أهلاً بالعروسة الجديدة.. يا ألف نهار أبيض.. يا ألف نهار مبروك.. هل تحتاجين للمساعدة؟

في طريقي، أحجمت نفسي عن الدخول إلى الصائغ؛ لابد أن زوج أمي أبلغ عن مواصفات السوارين. فكرت أن أشتري شيئًا للعشاء، لكني عدلت عن هذا واشتريت قالبًا من الشيكولاتة. توجهت إلى الموقف عائدة للمقابر.

***

السلام عليكم دار قوم مؤمنون،

أنتم السابقون،

وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون.

obeikan.com

القاعدة أنه لا يرتاح المرء إلا في بيته، هذا في الظروف الطبيعية. أما هنا: فلا يحصل المرء على بيته، إلا حين يرتاح.

لمحت «نعيمة» بالجوار، فاتجهت إليها.. بادرتني بالتحية:

- مرحبًا يا «سارة».. أين كنتِ؟

- مشوار.. قولي لي يا «نعيمة» .. هل رأيتِ...

ثم صمتُّ لحظة.. تذكرت أني بعد لا أعرف اسمه، قلت:

- حسنًا، هو شاب جميل، وحنون، ويرتدي جلبابًا أبيض.

أشرقت «نعيمة» :

- يسكن معنا هنا؟

- نعم..

أخذت «نعيمة» ذراعي، وأدارتني عن مواجهة الناس، وخفضت صوتها قائلة:

- وهل أعجبكِ؟

أطرقتُ.. فضحكتْ وقالت:

- مرحى! مرحى! ويقولون ليس هناك حب من النظرة الأولى!

- سريعًا جعلتِه حبًّا يا «نعيمة» ؟ المهم أين هو؟

obeikan.com

- وهل قلتِ شيئًا يميزه؟ كلهم جميل وحنون ويرتدي جلبابًا أبيض.. تعالي أعرفك إلى واحد جميل وحنون ويرتدي جلبابًا أبيض، لكن تذكري: هذا خطيبي أنا، هاه!

قادتني «نعيمة» إلى بائع الورد.. فأشرق لرؤيتها وبسط يديه بوردتين لنا.. التقطتُّ الوردة مبتسمة: رائحتها عطرة، وأوراقها الداخلية طرية، ولكن أطرافها ذابلة.. تشبه أمي.

قلت لهما:

- متى تتزوجان؟

سقطت ابتسامتهما معًا، قالت «نعيمة»:

- «خليل» يحاول تدبير المال اللازم لإيجار حوش.

وقال «خليل»:

- تعرفين: لم يعد أحد يشتري الورد للأحياء هذه الأيام، فكيف بالأموات.. وإذا كان على الحوش الخاص بأهلي أو أهل «نعيمة» فإخوتنا متزوجون بهما ولا يحتمل أحدهما أسرة جديدة.

ثم التفتَ إلى «نعيمة» وقال:

- فقط سقف وأربعة حيطان! وسأكون أسعد واحد بالدنيا.

ثم تبادلا نظرة دافئة.. ابتسمت، قدّرت أنه من الذوق أن أتركهما في هذه اللحظة.. فاستدرت. تجولت أتفحص شواهد القبور؛ أبحث عن عبارة: "اسماعيل الهادي".. لا شك أنه يرقد في مكان ما هنا.. أبي.. لكني لا أذكر

Obeikan.com

أين؛ فعم «جعفر» منعنا من زيارته منذ زمن.. لمحت عم «قرقر» أمام الحوش الخاص به يدخن الشيشة.. يدخنها باحترافية شديدة، لن أعجب لو كان سُمِّيَ كذلك نسبة إلى قرقرة الماء في الشيشة.

لوهلة، أنت لا تعرف سبب نفورك منه، لكنك لو بحثت قليلاً عن الأسباب ستجد ما يكفي.. ولكني مشغولة بالبحث عمّا هو أهم. سألته إن كان يعرف قبر المرحوم (اسماعيل الهادي).

سعل وقال:

- متى مات؟

- منذ قرابة الستة عشر عامًا..

نظر لي نظرة متوعدة، وقال بصوته الأجش:

- وهل أحفظ أماكن الأموات منذ ستة عشر عامًا؟

قدرت أني لو تكلمت كلمة أخرى فلن تكون النتائج في صالحي، انسحبت. تابعت تفحص الشواهد.. العملية شاقة فعلاً: العدد مهول، وكثيرًا ما يكتب على الشاهد الواحد أكثر من اسم، وكثير منها مطموس بفعل عوامل الزمن، ولكنها أيضًا كانت عملية ممتعة.. بعضها حمل آيات قرآنية أو أقوال مأثورة أو أبيات شعر، أو عبارات رثاء.. إلى جانب الأسماء والوظائف. وبعضها يحرص على إضافة الألقاب والأنساب والمناصب، وكأنهم يصرّون حتى اللحظة الأخيرة أن الأموات مقامات.

كنت أتأثر عندما أقرأ على شاهد ما عبارة كهذه:

"قبر المرحوم (...)..

لو أني صدَقتُكَ فسألحق بك، ولو عشتُ بعدك فأنا أستحق ما يحدث لي.

زوجتك المحبة (...)"

أو أضحك عندما أقرأ عبارة على شاهد ما:

"هنا يرقد المرحوم (...)

من جميع أبنائك ماعدا (...) فإنه لم يدفع لجنازتك"

فكرت: لو أتيحت لك كلمة أخيرة تقولها للعالم بعد موتك، أو كلمة أخيرة تودّع بها عزيزًا لديك.. ماذا قد تقول؟.. أما السؤال الأهم: لماذا لا أجد قبر أبي.. ألا أجد أمي، وأبي!؟

ابتعدت عن مجموعة من الشباب لا تريحني هيئتهم وما يتبادلونه فيما بينهم من أصناف المخدرات. لاحت لي الفتاة الخرساء من بعيد.. ابتسمتُ لها، لم تبادلني الابتسام. تقدمتُ منها، ففرت كعادتها.. لكني أصرَرْتُ على متابعتها.. كانت تتخفى خلف الشواهد، فتتوه عن عيني.. وأقف كالبلهاء في المنتصف، حتى تطل فأتبعها فتعود تهرب... صرخت بها:

- انتظري، أنا لن أؤذيكِ...

وأخرجت عبوة الشيكولاتة من حقيبتي ولوّحت بها:

- انظري ماذا أحضرت لكِ!

صاحت «نعيمة» من بعيد:

- «سارة»! لماذا ابتعدتِ هكذا! ولماذا تصرخين؟

تلفت حولي، وجدت أني أقف وسط المنطقة المهجورة من المقابر، هتفت:

- لا شيء يا «نعيمة» ! أنا عائدة!

واستدرت. لكن أطلّت الفتاة برأسها من خلف أحد الشواهد وصعدَتْ تعتليه، وكأنما تستوقفني. اقتربت منها ومنحتها العبوة، فضّت غلافها وقضمت قضمة صغيرة.. ثم مدت يدها بها إلى فمي.. هززت رأسي أن لا، لكنها ظلت تمد يدها حتى قضمت.

سألتها:

- لماذا تخافين مني؟

ثم تذكرتُ أنها خرساء، فاستدركت:

- أنا آسفة.. هل يمكننا أن نصبح أصدقاء؟

هزّت كتفيها في لا مبالاة. قلت:

- أنا «سارة»، وأنتِ.. هل يمكنكِ أن تصفي لي اسمك؟

أومأت، وابتسمت. فأعدت:

- هيًّا يا عزيزتي، صفي لي اسمك!

اتسعت ابتسامتها جدًا، وظلّت معلّقة هكذا على وجهها.. بدت كابتسامة خالية من الروح، ولا أدري لماذا تبتسمها. ثم مدّت إصبعيها إلى ركني فمي تحاول أن تباعدهما فيما يشبه الابتسامة. هنا فهمت:

- آآه! تقصدين أن اسمك (بسمة)؟

Obeikan.com

نفت برأسها، لكنها أدارت إصبعها كالبكرة، ونظرت لي مترقبة.. قدّرت أنه اسم قريب من (بسمة).. قلت:

- (فرحة)؟

هزّت رأسها أن لا..

- (هناء)؟

- لا

- (انشراح)، (سعاد)، (سعدية)، (بهيجة...

لا، لا، لا... تعبت:

- إذًا دعيني أناديكِ (بسمة)، اتفقنا؟

أومأت. ومن ثمَّ نزلت عن الشاهد وجرت.. تبعتها بعيني: لا أدري لماذا أنجذب إليها، وتنفر مني.. وقعت عيني على شاهد القبر الذي كانت ترتكز إليه، وقع قلبي.. دققت النظر جيدًا.. كانت الكتابة مطموسة وبالكاد يمكن أن تُرى، ولكني مع هذا ميزت:

"قبر المرحوم (اسماعيل الهادي)

هنا: أرقد أنا

زوجتك المحبة (سلوى عبد الدايم)".

تلمست بأصابعي الأحرف، استحلت إلى كفيفة تقرأ بأصابعها.. غزت القشعريرة جسدي كله.. أبي هنا، وأمي تقول أنها هنا.. فهل أمي هنا.. هل

obeikan.com

ترقد هنا فعلاً أم أنها استخدمت المجاز كالعبارات المؤثرة التي قرأتها على شواهد القبور.

أبي هنا، ميت، أوقن أنه ميت مع هذا لا أشعر بتلك الرجفة في قلبي..

أمي، ليس من المرجَّح أنها هنا، ليس من المؤكد أنها ميتة، مع هذا أشعر أن قلبي: ينشطر، يلتئم. ينقطع، يُحاك. ينكسر، يُلملَم على مهل..

ضممت كفي على دموعي، وقرأت الفاتحة. شعرت بذلك الوجود خلفي فاستدرت في سرعة، وشهقت. كان هذا هو الفتى فزفرت في ارتياح.. أشرت له إلى الشاهد وقلت:

- انظر! أمي هنا... أمي هنا..

لم يبذل جهدًا لقراءة الشاهد.. مدَّ يده بمنديل يمسح دموعي وقال:

- أنتِ ترين.. هذه الكلمات مطموسة المعالم، ولا شك أنها كُتِبت منذ زمن طويل، لذلك تعلمين أنها مجرد كلمات رثاء.

- لكني أخشى أن تتحول إلى حقيقة.

نظر إليّ بحنو وتفهم.. قال:

- أخبريني ماذا صار معكِ اليوم؟

هممت أن أنطق لكني تذكرت شيئًا:

- بالأول، ما اسمك؟

ابتسم:

- «آدم».

- وماذا تعمل؟

- مهندسًا، ولكني في إجازة.

ربما بدا عليَّ العجب لكني كتمته كي لا أضايقه، ولكنه قال:

- لا تعجبي، هنا أناس محترمون جدًا وأولاد ناس، لكنها الظروف لا تتيح للمرء ترف الاختيار.

تذكرت ما حكاه عن فقدِه هو الآخر لأمه، فسألته:

- هل ماتت أمك؟ هل هي هنا؟

ضحك وقال:

- بل أنا الذي هنا. ولن أجيب عن أسئلة أكثر حتى أعرف ما حدث معكِ.

فحكيت له كل ما حدث.. قال:

- من الضروري تدبير نقود.

ثم أحنى رأسه:

- يؤسفني أني لا أملك مالاً أدعمكِ به، ولكني أعدك يا «سارة» أن أبحث عمّا يساعد بشتّى الطرق، وبالتأكيد، أستطيع أن أقدم لكِ دعمًا نفسيًّا لا حد له.

شعرت بالارتباك:

obeikan.com

- أخشى أنك فهمت أني أحكي لك من أجل المال.. على العكس أنا معي ما يكفي.. لا تقلق أبدًا.

نظر إليَّ تلك النظرة التي كانت أمي تنظرها لي عندما أخبرها أني أكلت شطائري في المدرسة. قال:

- أنا أعلم أن ليس معكِ نقود. لكن إذا استطعتِ خداعي، فهل يمكنكِ خداع نفسك؟

هنا شعرت أني انكشفت، فتابعت بجرأة من ليس لديه ما يخسره:

- نعم، أستطيع. هل تعرف ماذا آكل منذ يومين؟

- ماذا؟

- أشهى الأصناف، بل وفي أشهى المطاعم كذلك.. وأحيانًا، أعدّها بنفسي في مطبخ منزلنا القديم الذي كنا نسكن فيه مع أبي.

- تتخيلين، ها؟

- نعم، وأشم الرائحة، وأتذوق النكهات، وتتحرك أمعائي.. أنا حتى أتخيل مفرش الطاولة.

- وهل يجدي هذا؟

- يشعرني بالتخمة.

قال باسمًا:

- أتمنى ألّا تعزميني مرة على الغداء.

obeikan.com

ابتسمت له، وسرنا عائدين إلى المنطقة الحيوية. بالقرب من حوش (الجمَّال) كانت (بسمة) جالسة تبني بيتًا من الرمال. قلتُ ممازحة:

- احجزي لي شقة يا عزيزتي.

وملت إلى «آدم»:

- تذكِّرني بنفسي..

- مَن؟

- هذه الفتاة الصامتة. في عينيها: قدر من الإقدام، وقدر من الإحجام، ومساحة لا نهائية من البراح.. كأنها السماء، أو البحر، أو فضاء المقابر.. عندما أراها أشعر بالحنين..

- وهذا حق كله. إن الفتاة لمليحة ولا نكران في ذلك. ولكن!

- ولكن ماذا؟

- ولكنها مازالت طفلة.

ثم استدار ينظر إليَّ نظرة مُغرِضة بينما يتحدّث عنها:

- انظري إلى هذا الجمال عندما يكبر وينضج و...

ابتسمت في خجل:

- بالرغم من أنك تلمِّح إلى غزل، لكني أصدُقَك: أنا وهذه الفتاة لنا نفس القدر من الحسن؛ فلو هناك مقاييس دقيقة للجمال فأظن أني وهي سنحصل على نفس الدرجة.

- إنك لا تكفين عن الحديث عنها، إذا كنتِ تحبين الأطفال إلى هذا الحد، فلماذا لا...

- لا.. ماذا؟

- نتزوج؟

هالتني المفاجأة.. بقدر ما تسعد بقدر ما تؤلم:

- نتزوج؟ ومِن مَن ستخطبني إذًا؟

فكّر قليلاً:

- مِن.. تلك الفتاة!

ضحكنا معًا. أقبل عليَّ بجسده:

- أنا أقدّر أنكِ تبحثين عن أمك.. فقط أريد عهدًا منكِ أننا سنقرأ الفاتحة أول ما تظهر.

- ربما يطول الأمد.

- إن وعدتِني أن أجني للصبر ثمرة، فأنا أصبَر من أيوب.

شعرت بالدنيا تدور.. هل هذا هو دوَّار الحب الذي تتحاكى عنه الفتيات أم... أصوات صراخ:

- زلـزال.... زلـزال.

تدافعت الأسر إلى خارج الأحواش، جذبني «آدم» إلى بعيد عن الجدار.. انفلتُّ منه وركضت إلى الفتاة أجذبها إلى الفضاء، لكنها كانت متشبثة

بمكانها جوار بيت الرمال الذي انهدم، حملها «آدم» عنوة وجرى بنا إلى بعيد.. برغم غرابة الفكرة، لكنّا كنّا نبدو للناظر: عائلة صغيرة.

أنا، وهي، وهو.. ثلاثة أضلاع للمثلث.. كلٌّ منَّا يشبه الآخر بشكل ما.. وكل منهما ساعدني بقدرٍ على احتمال الحياة وسط هذا المكان الكئيب.

ولمّا ارتجفت بضعة أحواش قبل أن تنهار زارتني خاطرة غريبة: المنطق يقول إن هذه الأحواش الهزيلة هي الأوْلَى بالسقوط من العمارات الفاخرة، لكن العاطفة تقول أن ساكني الأحواش الهزيلة أكثر احتياجًا إليها من ساكني العمارات الفاخرة.. ولكن ما جدوى هذا، فلا المنطق يسري كلامه، ولا تجدي العاطفة. لأن الكلمة العليا للقدر.

هدأت ضجة الهدد.. لكن لم تهدأ صرخات الأمهات الثكالى أو الآباء المفجوعين.. الأبناء ماتوا، والبيوت تهدمت.. هذا ما يسمونه: "موت، وخراب ديار".

رفعت يديّ إلى السماء شكرًا: أن أسرتنا الصغيرة بخير.

* * *

obeikan.com

(٥)

في الصباح التالي ذهبت إلى ست «فتحية»، حاولت التخفي باستخدام إيشارب ونظَّارة شمسية، لكن، لا عليك، أعرف أنه غير مجدٍ. سألتها إن كانت حصلت على الصورة فقالت:

- ليس بعد، الأمر ليس بالسهولة التي تصورتها. إنها حريصة جدًا ولا تتركني أعبث في أي شيء.

- لكن يجب أن نحصل عليها بسرعة يا ست «فتحية».

- إذًا اجلسي أنتِ هنا، وأنا سأذهب وأخبرها أن أمك اقترضت مني ملاعق فضية وعلَّها وضعتها في الصندوق، وحين تفتحه سأبحث سريعًا عن الصورة.

ثم قامت، وغادرت. وقفت أرقبها من العين السحرية وهي تدلف إلى الداخل، وأدعو الله أن يوفقها في مهمتها.. لحظات مُدّت إلى دقائق مُطّت إلى ما يقرب من الساعة.. ثم سمعت صراخًا من الشقة، تبينت منه عبارات مثل:

"تسرقينني أيتها المرأة الشمطاء"، "تمدين يدك إلى محتويات منزلي وتضعينها بعبّك"، "اتركي ما بيدك"، والعبارة الشهيرة: "برّه!"

وجدت الباب يُفتح، وتندفع منه ست «فتحية»، ثم يُصفق خلفها. فتحت الباب بسرعة. وقلت بوجل:

- أنا آسفة يا ست «فتحية».. سامحيني.

قالت بوهن:

- أنا الآسفة يا ابنتي.. لم أستطع أن أُحضر لكِ الصورة.

هنا انفتح الباب ثانية، وإذا بزوجة عم «جعفر» تلوّح بأوراق في وجه ست «فتحية»، وتصرخ:

- ها هي السيدة العفيفة التي تسرقين صورتها! ها هي صاحبتك المصون قد كُشف سترها، وبيديكِ أنتِ.. ها هي تستقبل خطابات غرامية.

سقط فمي ذهولاً.. أحتاج أن أسمع ثانية: ما الذي قالته؟ راحت في نوبة روحانية كشيوخ الصوفية تردد:

- في الصندوق! كله في الصندوق! كله في الصندوق!

ذهبت إليها وأمسكتُ بخناقها:

- لا تتفوهي بكلمة عن أطهر الناس أيتها الحقيرة. إنها أشرف من عشرة من أمثالك.

قالت وهي تدفعني عنها:

- ومن هذه أيضًا؟

تمكنت منها وأسقطتها إلى الأرض.. من خلفها بدا «يوسف» يطلّ بجذعه من خلف الجدار، ولمّا رآني جرى إليّ صارخًا:

- «سارة»!

تركتها، أردت أن أحتضنه، لكنها جذبتني إلى الأرض، وقامت فوقي تكيل الضربات:

- إذًا أنتِ «سارة»! أين السواران يا بنت المجنونة.. سأظل ممسكة بكِ حتى يأتي البوليس.

صاحت بـ«يوسف»:

- اتصل بالبوليس بسرعة.

جرى إليها، ضرب جانبها بقبضته الصغيرة يدفعها عني، مرددًا:

- دعي أختي.. دعي أختي.

- أختك من أين يا وجه البرص؟ دورك قادم!

استجمعت أنفاسي، كلت لها لكمة أخلّت بتوازنها. قبضت بيدي على إحدى الخطابات المنثورة على الأرض، وقمت ركضًا إلى الخارج يشيّعني صوتها:

- أمسكوها، لا تدعوها تهرب، سنأتي بكِ، سنأتي بكِ، يا بنت المجنونة.

***

طوال الطريق ترن بأذني عبارتها الأخيرة: "يا بنت المجنونة".

مشكلة هذا الفرع من الطب أنه يملك علاقة سيئة مع حرفي الجيم والنون.

دلفتُ من باب المقابر رأسًا إلى مقبرتي.. فيما سبق كانت المقابر تستقبل زائرين من الخارج. اليوم، عندنا اكتفاءً ذاتيًا.. زلزال الأمس وفّر خزينًا يكفي عدة أيام.

جلستُ إلى الأريكة. فتحتُ الخطاب لاهثة، قرأت:

"حبيبتي «سلوى»

لقد حاولت أن أمتنع عن الكتابة لكِ كما طلبتِ، ولكني لم أستطع.. أنا أعرف أنك امرأة متزوجة، وأني رجل متزوج، لكني بنفس القدر أعرف أنني رجل يعشقكِ، وأنكِ تعشقينني.. منذ الأزل.. تذكرين يا «سلوى»، تذكرين سعادتنا التي كانت تعانق السماء، تذكرين تشابك أيدينا بالدروب.. «سارة» التي كنت أحملها على ذراعيّ صغيرة، والآن: هي شابّة كالقمر.. كنّا لنكون أسرة رائعة يا «سلوى».. كم كنّا لنكون!

دعينا نعيد مجدنا، لاقيني في شارع السعادة..

المخلص،

(أ. أ.)"

المثل يقول: "لا تصدّق كل ما تسمع، ونصف ما ترى". وهذا الخطاب بالذات، من النصف الذي لا أريد تصديقه.. لا أريد..

أعدت القراءة، وأعدت، وأعدت.. طرق أحدهم الباب، فتحت، دون أن أعي تمامًا أني فتحت.

وقف «آدم» على الباب مشدوهًا:

- **ما بكِ يا «سارة».. لا تبدين على ما يرام!**

قرأت، وقرأت..

- **ما هذا الذي بيدِك؟**

نظرت إليه، ورفعت الخطاب متسائلة:

- **هذا؟**

قلبت الورقة رأسًا على عقب، قائلة:

- **هذا شيء من الطراز الذي يقلب الصورة هكذا.**

التقط الورقة مني، مرت عيناه على الكلمات، هتف:

- **غير ~~معقول~~ موجود..**

سمعتها بأذني مشوّشة، فسألته:

- **هل تقول: "غير موجود"؟**
- **بل أقول: غير معقول.**
- **كنت أتمنى لو تقول: غير موجود.**

أمي تستقبل خطابًا غراميًا من عشيق؟

obeikan.com

عشيق يرسل لأمي خطابًا غراميًا؟

خطابًا غراميًا يرسله عشيق لأمي..

الطريف، الطريف، أن الأمر ليس مرهونًا بسوء معاملة عم «جعفر» لها؛ الرجل يقول إنه كان يحملني صغيرة... يعني ربما في حياة أبي.

دفنت رأسي بكفي:

"ياللعار!"

جلس «آدم» بمواجهتي، يحاول أن يكون عقلانيًا.. لكني . في الغالب . لا أسمعه، أردد تمتماتي الخاصة:

- هذا يرجّح احتمال هروبها..

"امرأة متزوجة، رجل متزوج"

- لكنه يظل احتمالاً..

" «سارة».. صغيرة.. أحملها"

- كما أن احتمال تزوير هذا الخطاب وارد.

"شابّة كالقمر"

- من قِبَل زوج أمك مثلاً، أو زوجته الجديدة.. من يدري!

"في شارع السعادة"

- شخص له مصلحة..

"(أ. أ.)"

obeikan.com

تؤ! لا أعرف أن أفكر.. فقط لو تصمت قليلاً يا «آدم».. أ.. ماذا؟... (أ)..

صحت:

- «آدم».. ما اسمك بالكامل؟

نظر لي باستغراب:

- «سارة»! هل جننتِ؟

أدرت التساؤل في رأسي:

- "هل جننتِ؟"

ألم أخبرك أن ثمة مشكلة لهذا الفرع من الطب تتعلق بحرفي الجيم والنون؟ بهذه المناسبة أفصّل لك مجموعة الإشكاليات الخاصة بالجيم والنون.

الإشكالية الأولى: أنه بصرف النظر عن طبيعة المرض الذي يعانيه المريض، فإن العامة في النهاية يطلقون عليه: "مجنون".

الإشكالية الثانية: أن المريض يملك حساسية خاصة تجاه حرفي الجيم والنون، وحتى المريض المتقدم لا يكوّن مناعة ضدهما: بالأساس هو لا يصدّق أنه مريض، أتريده أيضًا أن يصدّق أنه مجنون؟

الإشكالية الثالثة: أن الطبيب النفسي لا يريد أن يصدّق أن مريضه مجنون، وأنه . بالتالي . طبيب مجانين.

obeikan.com

أما الإشكالية الكبرى: أن لا المريض، ولا الطبيب صدّقا العامة في ادعائهم أن المريض مجنون، ولو كانا صدَّقا لكانا اختصرا الطريق الذي سيتم قطعه قبل أن يدركا في النهاية: أن المجنون مجنون.

قال «آدم» في محاولة - كما يبدو - لتلطيف الجو:

- على كل حال، لست بآسفٍ لجنونك!

مهما يكن! لو كان «آدم» ألفًا فهو غير متزوج. ربما أدخله دائرة الشك لو تزوجني الآن. أبحث في معارفي عن صاحب ألفين، بشرط أن يكون متزوجًا، وأن يعرفني منذ الصغر وحتى الآن. والنتيجة: لا أحد.. من قال - أصلًا - أنّا ملكنا يومًا معارف، أو أقارب، أو أصدقاء!

أتفحَّص الخطاب من جديد: "لاقيني في شارع السعادة"... شارع السعادة؟ شارع السعادة.. قلت لـ «آدم»:

- أين شارع السعادة؟

- علّها عبارة مجازية.

- لِمَ لا يكون هناك شارعًا بهذا الاسم؟

- إذًا لماذا لم يكتب العنوان تفصيلاً.. رقم كم بهذا الشارع؟ ثم بأي الأحياء هو؟

- والتوقيت، لم يذكر موعد اللقاء.

فكّرتُ لحظة:

obeikan.com

- نحن لا نذكر الأرقام أو الأحياء بالنسبة للمعالم المميزة.. لابد أن هذا الشارع يحوي مَعْلَمًا مميزًا بالنسبة لهما، ويكون اللقاء فيه، في موعد بديهي بالنسبة للمَعْلَم.

صحت:

- الآن أذكر شارع السعادة.. ذلك الشارع الذي به مدرسة (السعادة) الابتدائية: مدرستي.. ولابد أنها سميت على اسم الشارع..

- رائع! لو أنها مدرسة فالموعد البديهي أنه:..

- وقت المرواح!

ولكني أحتاج إلى نقود.. أخرجت السوارين من حقيبتي:

- «آدم»، هل تعرف أحد هنا يشري هذين السوارين؟

- عم «قرقر».. ولكن لا تدعينه يأخذهما بثمنٍ بخس.

أخفيت السوارين في حقيبة يدي وخرجنا. حالة من الخراب فوق الخراب.. حين أتيت كنت أفكر أن منظر المقابر الممتدة هو أسوأ ما يمكن أن تراه، ولكني الآن أوقن أن هناك الأسوأ. البعض ينتشلون متاعهم من تحت الركام. أقول "متاعًا" مجازًا لأني لم أقصد أكثر من الحلّتين وكرسي الحمَّام.

البعض ينتشلون ما هو أسوأ: الجثث.. جثث أبنائهم وأهليهم: شيء.. يؤلم.. العويل والصراخ، والذهول والهذيان.

ملت إلى «آدم» قائلة:

- الناس تكلّم نفسها!

- ومَن يملك أعصابه يا «سارة»؟

إذ أسير، أقبلت عليَّ أم «لوزة» ملتاعة:

- الحقيني يا دكتورة.

- خير يا أم «لوزة».

- «لوزة» يا دكتورة! «لوزة»! ابنتي راحت!

وقع في قلبي:

- هل أصيبت في الزلزال؟

- لا، كفى الله الشر، جسدها لم يُصب، لكن عقلها أصيب.. جنَّت، جنَّت..

من جديد هذه الكلمة البذيئة..

- أرِني إياها.

استأذن مني «آدم» قائلاً:

- إذًا أنا في حوش (الجمّال)، سأرتاح قليلاً، وحين تحتاجينني مرّي عليَّ.

- حسنًا..

سرت خلف أم «لوزة»، وعلى باب الحوش صعقني المنظر:

obeikan.com

«لوزة» تقف في وسط الحوش، وحولها يتناثر قطن فراشهم الوحيد. الدماء تنز من جراح بوجهها، ولا تكف عن خبط رأسها بالحائط مرددة:

"كل شيء راح... كل شيء راح".

وقفت الأم تبكي، سألتها:

- هل مات أحد من أصحابها؟ أو تهدَّم حوش يخصهم؟

- لا، الحمد لله كلهم بخير.

اقتربت منها، حاولت أن أثنيها أو أستفسر منها، لكنها لم تكن تميز طبيعة الذي تمزقه: إن كان فراشًا، أو جدارًا، أو حتى جسدها الخاص.. تضرب الحائط بيدها، برأسها:

"صرنا في العراء.. صرنا في العراء".

أدرك بألم كنه الذي "راح".. أصيح بصوت عالٍ يغلب صياحها:

- «لوزة»! هل أثّر الزلزال على عمارتك؟

توقفت للحظة عن الحركة. أومأت برأسها، وسقطت على ركبتيها:

- كل شيء راح! كل شيء راح!

***

خرجت من حوش «لوزة».. مررت على «خليل»، بائع الورد، من النظرة الأولى عرفت أن شيئًا به ليس على ما يرام. إنه مبتهج على أفضل ما يكون، والضحكة تملأ وجهه بالرغم من كل ما حدث.. ثمة أمراض نفسية

تسبب الارتباك في مشاعر المريض، فيضحك حيث يجدر به أن يبكي والعكس.

اقتربت منه، وجلست جواره:

- كيفك يا «خليل»؟

أشرق، وصاح:

- عـال! عال العال!

- أراك مشرقًا..

- نعم، ألست عريسًا؟ أُمّـال!

وقع في نفسي، هل يتحدث عن المستقبل، أم.. قال:

- متعجبة، صح؟ سأحكي لكِ، تعرفين أن ما كان ينقصنا هو السكن. أخيرًا، منحتنا الدولة سكنًا. صحيح، أنه صغير، وهنا في المقابر، لكن: يؤدي الغرض.

- مهلاً، لحظة، هل تقصد أنك تزوجت؟

- نعم يا دكتورة، أقول لكِ أمس كانت دخلتي.

تهيبت، خرجت العصارات إلى فوهة معدتي:

- بمن؟

- الله! «نعيمة» طبعًا! ألا تقولين "مبروك"؟

ضغطت على فمي، حبست الدموع في عيني.. قلت بصوت مبحوح:

obeikan.com

- مبروك!

التفتُّ، حررت دموعي، وأفرغتُ معدتي.. «نعيمة» ماتت في الانهيارات، ودُفِنَت بالأمس.

على قبر «نعيمة» أقرأ الفاتحة. كنتِ أول صاحبة لي في حياتي، فاعذريني يا «نعيمة» إن لم أبكِكِ كما ينبغي؛ أنتِ قلتها: أن ليس الميت الثاني كالأول، وأنا لا أشعر فقط أني اعتدت الموتى، بل وكأني: أحدهم.

***

سمعت صوت حشرجة بين القبور تتخللها عبارة:

- وحّـدوه!

ها قد لاح عم «قرقر». اقتربت منه، وقلت مباشرة:

- عندي أشياءٌ أريد بيعها.

- وماله! وأنا شاري.

أخرجت له السوارين ووضعتهما في يده، رفعهما إلى عينه، وقال:

- أدفع لكِ ثلاثمائة جنيهًا.

- ولماذا هذا الإجحاف؟

أدار نظرته المتوعدة في وجهي قائلاً:

- وما هذا الـ "لحاف" أم "عيش حاف" الذي قلتِهِ؟ أنا لا أحد يقصدني إلا إذا كان يخشى بيع أشيائه بالخارج، ولا شك أن عنده أسبابه، وكما لم أسألك عن أسبابك، لا تسأليني عن أسعاري.

Obeikan.com

أظن أني قلت إني لم أبحث عن أسباب لكره عم «قرقر»، ويبدو أن هذه هي المرة الأولى التي تصيب فيها آرائي، اعتمادًا على محض الحدس.

قال:

- اسمعي يا حلوة. أنا ولائي الوحيد للنقود. لو قتلتِ قتيلاً وأردتِ دفنه هنا، املأي كفي، ثم ادفنيه.

- لكن الكفن ليس له جيوب يا.. عم «قرقر».

جلجلت ضحكته وسط هذا الخراب:

- أما أنا، فسأصنع له جيبًا بهذا الطول.

وبسط ذراعه أمامي.

هنا، يُقال عن عم «قرقر»: "اللي ملوش أب وأم، أبوه وأمه عم «قرقر»." أفكّر أنهم ربما أسموه هكذا نسبة إلى قرقرة الضحك في صدره، بصرف النظر عن أية مصائب بالجوار.

لاح لي «آدم» على البُعد. أدار أصابعه في دائرة وهمية بما يعني "كم؟"، فبسطت ثلاثة أصابع من يدي. هزّ رأسه بشدّة أن لا..

صاح عم «قرقر»:

- هاه! خلّصيني!

أخذت السوارين من يده، وقلت:

- أحتفظ بك عند الحاجة.

ومضيت.

* * *

(٦)

عند الظهيرة ذهبت إلى المدينة. وتوجهت مباشرة إلى شارع السعادة. هنا: كانت أيام طفولتي. بشكل ما يرجو الناس عودة طفولتهم، ولكني أرجو قصّها قصًّا من قاموس الذاكرة، بداية من العام الثالث.

لا أعرف ما الذي أتوقع بالضبط أن أجده.. الشارع بلا معالم خاصة سوى المدرسة. والمدرسة مثل أي مدرسة: مجموعة من الطلبة والمدرّسين.

لا أجد ما يمنع الحصول على شطيرة ريثما يحين موعد انتهاء اليوم الدراسي؛ فالشطائر الحقيقية شهية كالخيالية. هكذا تناولتها ودرت قليلاً حول المدرسة حتى سمعت جرس المرواح. انفتحت الأبواب وبدأت حشود التلاميذ في الخروج.

إحداهن تمسك كيسًا به بعض الشطائر المفتتة. تستخلص منه قطعة، وتهم لتأكلها.. لكنهن يخطفنها من يدها، ثم يخطفن الكيس. يملأن أفواههن متضاحكات.

تقف تنظر إليهن في صمت. تقترب منها فتاة عفيّة، تضع يدها على كتفها وتقول:

- ماذا؟ هل غضبتِ؟

تمتلىء عيناها بالدموع، في حين تهز رأسها أن لا. تسألها الفتاة:

- لماذا لا تردّين؟ هل أكلت القطة لسانك؟

ثم تستدرك ببطء:

- أم أنك غاضبة؟

تقول الفتاة على استحياء:

- لا!

لكن الفتاة الغليظة لا تنخدع بهذا الرد. تقول متصنعةً الأسى:

- بل أنتِ غاضبة.

ثم تنادي:

- يا بنات! أعدن لها طعامها.

ثم تتناول الكيس وقد بقي فيه الفتات. تمد يدها داخله، تكوّم كومة من الفتات بقدر قبضة يدها، تخرج يدها فجأة وتصوب الكومة لفم الفتاة وتضغط في قوة. تحاول الفتاة أن تتفلت.. تنجح أخيرًا في الركض وهي تمسح فمها. تشيعها ضحكات الفتيات.

أتخيل ماذا قد تقول هذه الفتاة لأمها عندما تسألها إن كانت أكلت شطائرها.. أتذكر إجابتي:

- كلها يا أمي! كلها.

obeikan.com

أتذكر نظرتها المتشككة لي، وكأنها تعرف كل ما حدث، أو كأن على جبيني وصمة: "أضحوكة المدرسة"!

***

وأحدهم، يسير في صمت.. الحقيبة متدلية خلف ظهره، والأولاد من خلفه تطاله عباراتهم:

- هل خِفتِ أيتها الدجاجة؟
- هل تفعل هذا في كل مرة تُضرَب فيها؟
- هل يكون على أمك أن تجفف الفراش كل صباح؟

يحاولون جذب أطراف الحقيبة، وهو: يحاول فقط أن يمد الخطى.

ثم يصفّقون بأيديهم ويتصايحون على نغمة واحدة:

- نريد أن نرى المبتل! نريد أن نرى المبتل!

ويبدو أن قائد المجموعة من الصبية لم يرضَ عن هذا الأداء، فأمرهم بالصمت، ثم جذب الحقيبة من يد الفتى المرتبك بحركة فجائية، فتعالت صيحات الاستحسان.

كان بنطاله مبتلاً، يخفيه بالحقيبة، ولمّا نزعوها صار يحاول إخفاءه بكفّه الصغير، في حين يدور بينهم محاوِلاً أخذ الحقيبة التي تتداول من يدٍ ليد.

أتخيل ماذا قد يقول لأمه عندما تسأله عن سبب ابتلال ملابسه.. أتذكر إجابتي:

opeikan.com

- انسكبت الزمزمية!

أتذكر نظرتها المرتابة لي، وكأنها تعرف كل ما حدث، أو كأن على جبيني وصمة: "أضحوكة المدرسة"!

***

تساءلت في نفسي عن طبيعة السعادة التي يتلقاها الأطفال في مدرسة (السعادة) الابتدائية!

تقدمت إليهم، جذبت الحقيبة من أيديهم، وجذبت الصبي بعيدًا صائحة:

- يكفي! دعوه في حاله!

تقدّم إليَّ قائد العصابة الصغيرة:

- وما شأنكِ أنتِ؟

وأشار إليهم من خلف ظهره أن يتبعوه. وجدت الدائرة تضيق حولي والصبي، ومن حُسن الطالع أن صاح صوت خشن بهم:

- يكفي! اذهبوا لبيوتكم أو سأبلغ عنكم الناظر.

تهامس الصبية:

- أستاذ (أحمد).. أستاذ (أحمد).

وتفرقوا.. رفعت عيني لأشكره، لكن بالضبط تجمّدت ملامحي، صحت:

- أستاذ (أحمد إبراهيم)!

obeikan.com

لا شك أنه هو -صحيح أن الزمن نال منه تمامًا ولكنه هو- مدرِّسي القديم: هذا رجل أجلَّه بكل معنى الكلمة، ودومًا ما كنت أحكي لأمي عن رفقه بي، ودعمه لي، و...

ماذا؟ (أ. أ.)؟!! ثمة خاتم زواج بيسراه، ويعرفني منذ الطفولة.

أستاذ (أحمد).. الأستاذ المفضّل لي، والمقرّب إلى أمي.. هل كانت زياراتها لي في المدرسة لأجل خاطره؟ هل كان يعاملني جيدًا لأجل خاطرها؟ لا يهم! لا يهم! هل يعرف أين هي؟

- عفوًا يا ابنتي، هل تعرفينني؟

ارتبكت:

- أنا.. أنا (سارة اسماعيل). تلميذتك منذ المرحلة الابتدائية يا أستاذ.

قال مفكرًا:

- (سارة اسماعيل).. (سارة اسماعيل).. اعذريني يا ابنتي.. أنا لي ما يقرب من عشرين عاما في هذه المدرسة..

ها هو يتمادى في إنكاره.. قلت:

- أنت كنت مدرّسي المفضَّل يا أستاذ، وتعلمت منك الكثير، وأمي أيضًا كانت تقدّرك.

صمتُّ لحظة:

- أمي: «سلوى»، هل تذكرها؟

أشرق وجهه:

- آآه.. تذكرتك، والله كبرتِ يا «سارة»، وأصبحتِ شابة كالقمر!

خرق التشبيه أذني، اعتركت مشاعري.. هممت أن أنطق لكنه سبقني:

- كيفك، وكيف والدتك؟

ارتسمت الحيرة على وجهي:

- ظننتك تعرف!

ارتسمت البلاهة على وجهه:

- وكيف أعرف! أصدُقك يا «سارة»: كنتِ من أنبه التلاميذ عندي، ووالدتك سيدة فاضلة، نعم، سيدة بمعنى الكلمة! وفي أي الكلياتِ أنتِ الآن؟

هو يبدو صادقًا في جهله، فإما أنه شديد الطيبة، أو شديد الخبث. سألته مباشرة:

- ألا تعرف أين أمي؟

اندهش:

- هل هي غائبة؟

أعدت بخشوع:

- أرجوك أن تخبرني أين أمي..

- وكيف لي أن أعرف يا ابنتي.. هل تحبّين أن أبحث معك؟

قطعت حديثه، وخطوت بعيدًا. لكني توقفت واستدرت:

obeikan.com

- على فكرة، لو صادفت أمي، أخبرها أنني يمكنني أن أغفر لها أي شيء، أي شيء...

***

في لحظة تفكر أنك منفطر على شخص غير سائل عنك على الإطلاق، ثم تعود فتفكر أنك لا تعرف أي أحوال تلم به: ربما هو عالق بحيث لا يستطيع الإفلات، ربما يخاطر من أجل العودة إليك، إنه حتى قد يكون عالقًا في السماء! ثم، وبرغم كل شي.. إنها أمي..

كانت مخاطرة كبيرة لكني اتجهت إلى العمارة. أحتاج أن أعرف لماذا قال البواب في التحقيق إن أمي لم تخرج ليلة الاختفاء. بكل الأحوال كان يجب أن تخرج سواء على قدميها أو مفارقة للحياة. ثم أين هو البواب الذي يسهر طوال الليل ليستطيع أن يؤكد أن فلانًا خرج أو لم يخرج. هذا الرجل يكذب.

عندما رآني «جاد» ضرب صدغيه، وقال:

- يا غلُبك يا «جاد»! لماذا جئتِ يا ست «سارة»؟ ألا تعرفين أني مطالب بالإمساك بكِ متى رأيتك؟

- كلمة واحدة يا «جاد».. أنت قلت أنك كنت ساهرًا طوال ليلة اختفاء أمي، لماذا كذبت؟

- لم أكذب.

- بل كذبت. أنت لو كنت ساهرًا لرأيت زوج أمي يعود وجه الفجر، لكنك لم تذكر أنك رأيته.

قادني «جاد» إلى غرفته الجانبية قائلاً:

- تعالي، أرجوكِ، لَيرانا أحد!

ثم قال:

- أنا فعلاً كنت ساهرًا حتى وقت متأخر جدًا، ولم أرَ الست «سلوى» تخرج. ولكن لما سألني البوليس خشيت إن لم أقل أني سهرت طوال الوقت أن يحاسبوني.. هذه مسؤولية يا ست «سارة».

- هذا كل ما أريده: أن تقول أنك نمت، وأنك لا تدري حتى لو أن جاء قاتل من الخارج فقتل أمي وسحبها ومضى!

- نعم، نمت. والآن أجوكِ أن تغادري بسرعة قبل أن يرانا أحد.

تسلل صوتًا من خاج الغرفة:

- هل أنت هنا يا «جاد»؟

ضرب صدغيه من جديد مرددًا بصوت خفيض:

- يا غلبك يا «جاد»!

قلت له هامسة:

- لا تخف، هذا صوت الست (وفاء) الكفيفة.

صاح «جاد»:

- سآتي حالاً.

وكاد يغادر، لكني استوقفته:

obeikan.com

- سؤال أخير يا «جاد»: الخطابات التي كانت تخص أمي، من الذي كان يرسلها؟

- لا أعرف يا ست «سارة»... كان يحضرها ساعي البريد مع باقي الخطابات.

- ولماذا لم تصعد بها إلينا مثل باقي الخطابات؟

- هذه أوامر الوالدة، أن أبقيها معي وأسلّمها لها باليد، وكانت -عدم المؤاخذة- تمنحني المعلوم.

- ولم تصل خطابات جديدة؟

- آخر خطاب وصل كان يوم اختفاء الوالدة.. لم ألحق أن أسلّمه لها..

تكرر النداء بالخارج:

- يا «جاد»!

- حاضر يا هانم!

ثم مدّ يده في جراب على الجدار، وأخرج مظروفًا قائلاً:

- ها هو! والآن أرجوكِ أن ترحلي..

التقطته بلهفة، ومددت يدي بعشرة جنيهات قائلة:

- حسنًا يا «جاد»! إذا وصلك أي خطاب جديد ابقه معك، وسلّمه لي.

وأكدّت له:

- سأعود.

خرج «جاد». واحتميت أنظر من خلف جدار الغرفة: كانت جارتنا الكفيفة واقفة مستندة إلى عكّازها، قالت بتشكك فور أن خرج «جاد»:

- هل «سارة» معك؟

ضرب «جاد» على رأسه برفق:

- «سارة» مَن يا ست هانم؟ مُري!

تسللتُ بسرعة إلى خارج الغرفة فالعمارة، وكم تمنيت لو بين الخيارات أن أتسلل إلى خارج الحياة.

***

كان مظروفًا عاديًا عليه طابع محلي وغير مكتوب على وجهه الأمامي اسم المُرسِل. وعلى وجهه الخلفي عنواننا مع عبارة: "يسلَّم ليد السيدة (سلوى عبد الدايم) مباشرة"

لم أستطع أن أنتظر الوصول إلى البيت لقراءة الخطاب. بمجرد أن ركبت الميكروباص، فضضت الغلاف وقرأت:

"حبيبتي «سلوى»،

برغم كل شيء لازلت أكتب لكِ. تقولين أن (العقّاد) يقول أن القراءة تمنحه أكثر من حياة، أما أنا فالكتابة إليكِ تمنحني الحياة. وإذ أقرر أن هذا سيكون خطابي الأخير لكِ، أشعر بأني أفقد الحياة.

لا أعرف كنه هذا الشعور.. علّه الإحساس بالفناء.. تعرفين، بعد أن يموت أحدهم، تكثر الأصوات التي تردد: "كان يشعر أنه سيموت"..

أصارحك يا «سلوى» أن هذا خطابي الأخير: فإمّا تقبلين عرضي بترك الماضي خلف ظهورنا، والانتقال إلى الحياة الجديدة، وإمّا: ستقبلينه رغمًا عنكِ. ولستُ أنا من يرغمك يا عزيزتي، ولكنه القضاء يسري رغم الأنوف.

المخلص إلى الأبد،

(أ. أ.)"

غبت قليلاً عن الواقع، حتى إنهم حينما طالبوني بالأجرة، منحتهم الخطاب.

***

فور أن دلفت إلى المقابر، هالني صوت الصراخ القادم من حوش عم «قرقر». سألت أم «لوزة» بوجل:

- ما هذا الصراخ؟

- هذا «قرقر»، يضرب أولاده.

- هذا الرجل وَحش!

وجريت أطرق بابه، في حين أم «لوزة» تجذبني:

- لا دخل لنا يا دكتورة الله يخليكِ!

فتح الباب، وبيده معول الدفن، واللعاب يسيل من شدقيه:

- ماذا تريدون؟

- لماذا تضرب الأطفال بهذه الطريقة الوحشية؟

- لا أحد يتدخل! أولادي وأربيّهم.

مجددًا أشعر بـ"ديجا-فو". كيف يجدون لأنفسهم المبرر... كيف! صحت به:

- لا يمكن أن تكون هذه طريقة تربية الأطفال! أنت تعقّدهم بهذا الشكل يا عم «جعفر».

ارتبكت، شطبت في عقلي على الكلمة الأخيرة، وقلت على الفور:

- «قرقر»..

أمسكني من كتفي ورفعني إلى وجهه:

- أنتِ تماديتِ جدًا! كلمة أخرى وسأربّيكِ أنتِ أيضًا!

ثم أفلتني، وقال بقرف:

- هيًّا! إلى حوشك!

جززت على أسناني، واستدرت.

***

obeikan.com

حصلت على كوب من القهوة من يد أم «لوزة»، ودخلت إلى الحوش، أريد أن أكون وحدي، وأرجو ألا يطرق بابي أحد.

جذبت أحد الكراسي ليعمل كطاولة أمام مقعدي. وضعت عليه كوب القهوة، خطابيّ أمي، مرجعي الدراسي، رواية «سارة»، وقلم. وجلست أمامهم.

فتحت الخطاب الأول، وكالتلميذ المجتهد راجعت معلوماتي: من المؤكد أن لأمي عشيقًا. أول حرفين من اسمه ألِفان. متزوج. يعرفني جيدًا منذ الصغر. ويلاقيها في شارع السعادة.

الخط بحد ذاته، غريب، مبعثر يبدو أنه كُتِبَ بجهدٍ كبير كخط طفل يتعلم الكتابة.

فتحت الخطاب الثاني، هو ليس واضحًا بقدر الخطاب الأول.. عباراته ضبابية مبهمة كأنك تشاهد حلمًا. بعض العبارات تصلح كرسالة انتحار مثل: "أقرر أن يكون خطابي الأخير"، "أشعر أني أفقد الحياة"، "علّه الإحساس بالفناء"، "بعد أن يموت أحدهم تكثر الأصوات التي تردد: كان يشعر أنه سيموت".

بينما بعض العبارات تصلح كرسالة تهديد بالقتل مثل: "إما تقبلين عرضي، أو ستقبلينه رغمًا عنكِ"، "لكنه القضاء يسري رغم الأنوف".

رشفت بعض القهوة. فكّرت: كيف تجمع الرسالة بين الانتحار والتهديد بالقتل؟

obeikan.com

أجبت ببساطة: حين تجمع بين الانتحار والتهديد بالقتل. نعم: سأموت، ولكني لن أتركك تنعم بالحياة.. لنحيا معًا، أو نمت معًا.. أو بالطريقة الشعبية: "يا نعيش عيشة فل، يا نموت إحنا الكل"!

ولكن: هذا في حالة رفض العرض. والعرض هنا يتلخص في ترك الماضي والانتقال إلى الحياة الجديدة.. أو بعبارة أخرى: الهرب. إذًا هذه الرسالة تحريض على الهرب.. فهل هربَتْ أمي؟

أن تقبل العرض فتهرب وتنفذ بعمرها،

أو ترفض العرض وتبقى فيزهق روحها.

في الحالة الأولى تكون أمي غادرت بإرادتها. في الحالة الثانية تكون قُتِلَتْ، ويكون أيضًا أي بحث عن المدعو (أ.أ.) بلا جدوى. لأنه -في الغالب- انتحر.

أعدت تفحص المظروف بحثًا عن عنوان، أو تاريخ، أو...

سقطت بطاقة صغيرة بحجم بطاقة العمل. مرسوم على وجهها باقة من الورود. أدرت البطاقة سريعًا لأقرأ على ظهرها:

"أعرف أنكِ لن تقبلين،

فاقتليني يا «سلوى»

اقتليني يا «سلوى»"

قذفت بها في استخفاف:

- أهـ..! ما هذا الهراء! هل يريد أن يجعل من أمي قاتلة..

أمسكت الخطاب باهتمام.. هل كان يقصد طوال الوقت أن يتم قتله، لا أن ينتحر؟

عن شخصية (أ. أ.): فالمشتبه به الأول أستاذ (أحمد إبراهيم). دعك من أنه يبدو بريئًا، البراءة الحقيقية أن تصدِّق أحدهم حين يبدو بريئًا! ولكنه ليس المشتبه به الأول فقط، بل وأيضًا الوحيد. ولا يبدو بريئًا فقط، بل وأيضًا لم ينتحر. هذا لأنها هربت..

كنت أتحدث وأرد على نفسي كالـ... لن أقول.

زفرت.. أسندت رأسي للوراء.. تذكرت حديث جارتنا «فتحية» عن بيع أمي للسوارين قبل اختفائها. هذا يدعم نظرية الهرب. لكن لماذا لم تأخذ باقي حليها؟ والسؤال الأكثر بدائية: لماذا لم تخبرني؟

أمي، الأكثر قربًا لي في العالم من أنفاسي.. هل كانت تظن أني أضن عليها بمثل هذه السعادة.. لكم ألححت عليها أن تتطلق من ذاك الرجل البغيض ونرحل تسعنا أرض الله. لكنها كانت تصر أنها يمكنها أن تتحمل أي شيء لأجلي. لأجل أن أتعلم وأكبر وأصبح شيئًا في المجتمع. فما الذي حدث؟

نظرت إلى مرجع علم النفس وسألته:

- ما الذي حدث؟ هل يمكنك أن تجيبني؟

فتحت المرجع حيث ثنيت الصفحة، قرأت بنبرة آلية:

"ويقول د. (أشرف أبو النور)، الأستاذ بكلية الآداب: أن هذا المرض مزمن، وترجح الدراسات أنه وراثي"

Obeikan.com

توقفت عن القراءة. أعدت من أول السطر: "د. (أشرف أبو النور).. د. (أشرف أبو النور)"

جحظت عيناي: (أ. أ.) !

د. (أشرف) أستاذي في الجامعة الذي كانت تشرق أمي عندما تراه في التليفزيون. الذي كانت تتابع برنامجه بشغف. الذي كانت تحسدني أني أراه وجهًا لوجه.. الذي لا أدري إن كانت عدوى الإعجاب به انتقلت مني إلى أمي أم منها إليّ.. الذي.. آه.. أشعر بالتعب.

من أجل هذا إذًا باعت سواريْها. ست «فتحية» قالت إنها باعتهما لتذهب لطبيب.. أنا قلت لها إن قيمة الجلسة الواحدة في عيادته مائة جنيهًا. لابد أنها فكّرت أن زيارته كمريضة هي الطريقة الوحيدة لرؤيته. رشفتُ من القهوة التي باتت كالثلج. شرقتُ بالضحك.. كيف فاتني أن اسم برنامجه التليفزيوني: "شارع السعادة"!

أشعر بالاكتفاء.. لا أريد أن أبقى وحدي أكثر.. سأخرج، سأعود للمدينة.. يجب أن أرى د. (أشرف). طرقات على الباب: كان «آدم» بالتأكيد، بادرته:

- جئت في وقتك! اختنقت بالجلوس معها.

- مع من؟

- أنا!

- ثمة توافيق للقدر! ترى، ما أخبارها؟

- من؟

- أمك.

أريته الخطاب، وأخبرته بظنوني ريثما أعيد ترتيب الاستراحة. ثم تناولت حقيبتي وخرجنا. قلت له:

- سأعود إلى المدينة، يجب أن أرى د. (أشرف).

- كنتِ هناك بالصباح، لِمَ لا تنتظرين للغد؟

- لا أستطيع.

تفحَّص الخطاب قليلاً، ثم خبط عليه بأطراف أصابعه وقال:

- لكن هناك ملاحظة هامة غائبة عنك.

- ماذا؟

- بناءً على هذا الخطاب أنتِ افترضتِ أنها قبلت العرض وهربت، أو رفضته وقُتِلت.

- نعم..

- لكنكِ نسيتِ أنها لم تتسلم الخطاب أصلاً!

شهقت في عدم تصديق.. بالأصل: كان ظنًا شبحيًا يستند إلى دعامة مهتزة. الآن سقطت الدعامة، فتعلق الظن من عرقوبه في الفضاء... أن تفقد حتى الظن: بكيت.

اتسعت عينا «آدم».. همَّ أن ينطق، أغلق فمه على لا شيء..

أنا! أنا في ورطة كما ليس لأحد. أمي: الشخص الوحيد بالكون الذي ينتهي لقبه -بالنسبة لي- بياء النسب.. أينها أمي.. أينها؟!!!

فاقدة لأمي، متهمة بالسرقة، مطلوبة من البوليس، تاركة لدراستي، ليس عندي بيت ونقودي تشارف على الانتهاء.. حتى أخي المرة الوحيدة التي رأيته فيها منذ الحادثة -للسخرية- لم أتمكن من احتضانه!

هذا أنا!

قال «آدم» برفق:

- إن الذين ينصفونك في الدنيا قليلون.

نظرت إليه بحنو:

- لكنك هنا يا «آدم».

- نعم، أنا هنا من أجلك.

كانت الفتاة الصامتة (بسمة) تلعب بالجوار.. فذهبنا إليها وتضاحكنا.. لا أدري سبب انجذابي إليها و «آدم».. ربما حاجتي إلى أسرة، ربما نقاؤهما الذي يشعرني كم هما قريبان من نفسي.. وربما لأن لكل منهما ظروفًا مشابهة كثيرًا لظروفي؛ فالبائسون -كالطيور- على أشكالها تقع.

* * *

Obeikan.com

(٧)

لم أتوقع أن أجد د. (أشرف أبو النور) في الجامعة في مثل هذا الوقت المتأخر، لذلك ذهبت إليه في عيادته.. شهرته، لم تدع مجالاً للتيه. وعلى واجهة العمارة طالعتني لافته: "شارع السعادة.. العيادة النفسية" مع اسم الرجل، ودرجته العلمية.

دلفت إلى العيادة. طلبت من الممرضة أن أقابل الطبيب، فأرشدتني إلى حجز كشف وأن أقرب موعد متاح بعد أسبوع. أخبرتها أني لا أملك ثمن الكشف ولا يمكنني الانتظار أسبوعًا. ومن باب الاستعطاف: قلت إني هنا لأمر حياة أو موت. ومن باب التهديد: قلت إني فضّلت المجيء بصفة ودّية قبل الذهاب للبوليس.

كان هذا كافيًا لتشعر بالارتباك، وتطلب مني أن أنتظر.

في وقت - بدا لي ساحقًا في القدم- كنت أظنه رجلاً متزنًا، وقد غاب عني أن مشكلة هذا الفرع من الطب أن الأطباء النفسيين أكثر جنونًا من مرضاهم. أي مريض: هو يعرف مرضًا واحدًا.. أما الطبيب فهو يحتك بآلاف الأمراض، هات لي عاقلاً بالكون يمكنه الاحتكاك بآلاف المجانين دون أن يتأثر بهم! ثم ما الدافع لارتياد هذا الفرع من الطب الذي - حتى بعض الأطباء- يعتبرونه وصمة؟ لابد أن هناك سببًا:

إما أنهم يشتهون المرض النفسي، ومن ثم يرغبون في مشاهدته عن كثب.

وإما أنهم يعانون المرض النفسي، ومن ثم يرغبون في مداواة أمراضهم الخاصة.

وإما أنهم يخشون المرض النفسي، ومن ثم يدرءونه عن أنفسهم.. كالتعويذة: أنا طبيب نفسي، إذًا يمكن للسذَّج أمثال «سارة» ووالدتها أن يظنونني متزنًا، وعندي حل لكل مشكلة، وأني -بلا شك- "فتوّة" شارع السعادة.

بعيدًا عن ألاعيب مكتب التنسيق، أنت تدرس الشيء الذي يختلج شيئًا في صدرك حين تسمع اسمه، أليس كذلك؟

الأدب، الإعلام، العلوم، الآثار، الهندسة..

الآن سألقي عليكَ اختبارًا بسيطًا:

"الطب النفسي.."

هل اختلج في صدرك شيء؟

هتفت الممرضة:

- تفضلي.

بالداخل، فكّرت أن أثقال الحياة لا تدعني -من تحتها- خفيفة الحركة للالتواء. هكذا قلت مباشرة:

- أنا هنا، بشأن سيدة تدعى (سلوى عبد الدايم)، هل تذكرها؟

قال بلهجة عملية:

- لا أظن.

Obeikan.com

يبدو أنه يملك مرونة كبيرة للأكروبات. أخرجت الخطابين من حقيبتي ومنحتهما له. تفحصهما ثانية ثم هتف:

- آآه! مريضة الفصام؟

- ماذا؟

- ولكن، من أنتِ، ولماذا تفترضين أني سأفشي أسرار مرضاي؟

تؤ! هل قال مريضة؟ أمي؟.. في لحظة تبدلت نظرتي إليه، استعدت احترامي له:

- عفوًا يا دكتور.. هي أمي، ومفقودة، وأرجو أن أجد عندك معلومات تفيدني في معرفة مكانها!

بحث الدكتور في أوراقه عن سجل أمي، وقال:

- السيدة «سلوى» بدأت تزورني قبل أشهر، وحكت لي كيف أنها ممزقة بين واقعها المهين، وحبها لابنتها الذي يدفعها للرضوخ. كانت تشعر أنها عالقة في هذا الواقع، غير قادرة على الإفلات. غير أنها وكنوع من الهروب من الواقع توهمت وصول خطابات لها من حبيب قديم.

ذلك الحبيب الذي رمزت له بالحرفين (أ. أ.) نسبة إلى الأحرف الأولى من الحب الوحيد بحياتها.

نظر في أوراقه للحظة وقال:

- زوجها الأول (اسماعيل الهادي) .

اتسعت عيناي، فيما يتابع حديثه:

- تلك الخطابات التي كانت تكتبها بيدها اليسرى، لكي تفصل شخصيتها كمرسل، عن شخصيتها كمتلقٍ، وكانت تسقطها في البريد، ثم تنسى كل شيء عنها، إلى حد أنها تتفاجأ من وصولها.

- وهل يمكن لها أن تنسى ما فعلته بنفسها؟

- بالتأكيد، أنتِ تتحدثين عن المرض النفسي هنا، ومن أجل هذا هي جلست أمامي على هذا المكتب كما تفعلين الآن.

- وأين هي الآن يا دكتور.. هل يمكن أن تكون هربت مع الرجل الوهمي..

- هذا ممكن، لكن أخشى أنه احتمالٌ ضعيفٌ... هذا الخطاب الأخير الذي منحتني إياه يؤكد على نبرة "الفناء".. أيًا كانت صيغته سواءً أن تقول على لسان العشيق أنها ستنتحر، أو تهدد نفسها بالقتل. كلها أشياء تنبىء عن رغبة أصيلة في الموت: كوسيلة للهرب من الحياة، أو بعبارة أخرى، الانتقال إلى الحياة الآخرة.

أطبقتُ على قلبي بقوة: دومًا كانت تردد أنها تريد أن تموت.. كانت تطلب من الله أن يريحها.. هي حتى طلبت على لسان العشيق أن يتم قتلها. ارتجف قلبي بعنف: هل...

- هل انتحرت؟

- ليست عندي إجابة هذا السؤال، فقط أخبرك أنها كانت مؤهلة لذلك بشدة.

***

انتحرت؟.. كلما اقتربت من الحقيقة كلما تمنيت لو أبتعد. عدت للبيت في صمت. أرجوك، لا تحدّثني، ولا أحدّثك.

ذهبت إلى قبر أبي. هذا مكان آمن وقريب ويثير الحنين. غمزتُ له بعيني:

- لك أن تفرح يا عزيزي.. طلعت أنت حبيبها الوحيد.

استمعت إليه بخشوع.. لكني اضطررت للمقاطعة:

- لكن الجثة! لو افترضنا أنها انتحرت كما تقول، فأين الجثة؟ ثم كيف.. كيف انتحرت.. أنت تعرفها أفضل مني يا أبي.. هي قوية الإيمان، وضعيفة القلب.. لا تستطيع أن تذبح دجاجة، فكيف؟ كيف؟

وجدت (بسمة) تقترب، تمسك وجهي بأطراف أناملها وتحاول أن تديره لها، لكني كنت منشغلة بالحديث مع أبي، فطلبت منها أن تلعب بعيدًا.

عدت أقول:

- أقراصًا مثلاً؟ هذه طريقة تفضلها النساء جنبًا إلى جنب مع السم...

راحت (بسمة) تصعد إلى شاهد مرتفع، وتقفز منه، عدة مرات. صحت بها:

- توقفي يا عزيزتي، هذا خطر..

ثم التفتُّ لأبي:

- ماذا كنّا نقول؟ آه.. شيء يناسب طبيعتهن الرقيقة، بعكس الرجال يميلون إلى الرصاص والدماء..

لازالت هذه الفتاة تلعب هذه اللعبة السخيفة، زفرت في نفاذ صبر وقمت إليها مباشرة:

- ألن تكفّي حتى تسقطي فيُدَق ع.. ن.. ق.. ك!!

نعم.. هذه طريقة محتملة بشدة.. أن تسقط من أعلى.. السقوط من أعلى أمرٌ محيِّر منذ القدم، وصالح لأن يحمل جميع الشبهات: انتحار، قتل، محض حادثة.. ولا يجدي الطب الشرعي في ترجيح أي كفة في الغالب. لكن الجثة... أين الجثة؟!

***

اقتدت (بسمة) من يدها عائدين إلى المنطقة الحيوية من المقابر. كان طفلا «قرقر» جالسين في حزن. ففكرت أن أسرّي عنهما قليلاً، جلست جوارهما وقلت:

- لا بأس.. يوم نبكي، يوم نضحك.. صح؟

قال (قدري) الولد الأكبر:

- المشكلة أننا نبكي كل يوم. بل طوال اليوم. كل الأولاد آباؤهم يخرجون يذهبون للعمل، ونحن أبونا عمله في البيت.

بحثت عن أية ميزة بـ«قرقر» كي أصبّرهم بها:

- لكن.. لكن أباكم لديه كرش ظريف، واسمه مضحك.. قل: «قرقر» هكذا؟

نظر لي الطفل شذرًا، وصمت. قال أخوه الأصغر (رفيق):

- إنه سخيف حتى في اختيار أسمائنا.. لا أدري ولعه بحرف القاف!

استشعرت جدية ضجرهم، فقلت:

- ما رأيكم أن نلعب لعبة؟

هزّا رأسيهما أن نعم. ونظرا لي بانتظار التفاصيل.. المشكلة أني لا أملك أي فكرة عن طبيعة اللعبة، نطقت بتأنّي لأمنح نفسي وقتًا للتفكير:

- هذه اللعبة تتلخص في..

ثم قلت دفعة واحدة:

- أن يحكي كل منّا عن إنجازٍ كبير بحياته.

قال (قدري):

- أنا مُطارَد من عصابة.

- ماذا؟

- سأخبرك، أبي أخرجني من المدرسة، وأرسلني لأعمل في مقهى "إنترنت" في المدينة. وذات مرة إذ أسير في الشارع طلع لي رجل وبدأ في ضربي.. فمن الطبيعي أني قاومته دفاعًا عن النفس. فأخرج سكينًا، وبدأ يلوّح به في وجهي. هكذا أخرجت مطواتي، وغرستها ببطنه. لم أرد أن أقتله لكني خشيت أن يقتلني.

- ولماذا حاول هذا الرجل قتلك؟

فكّر (قدري) للحظة، وقال بدهشة:

- لا أعرف!

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بمجرد أن مات هذا، انهال عليَّ أفراد العصابة الواحد بعد الآخر، أقتل واحد تنشق الأرض عن آخر، لدرجة أنهكتني، فانتهزت أقرب فرصة للهرب، وبأعجوبة نجوت.

- حمدًا لله! إذًا لا تعد ثانيةً لهذا الطريق. وربما من الأفضل أن تترك هذا العمل.

- لا.. غير ممكن.. أنا لا أستطيع الاستغناء عن هذا العمل. كما أني اعتدت على السير في هذا الطريق ومواجهة الأعداء بشجاعة والقضاء عليهم.. هذا يشعرني بسعادة كبيرة وكأني بطل معركة والناس تخشاني وتعمل لي حسابًا.

علت التجاعيد جبيني:

- حقًا؟

ياللنفسية المريضة التي صنعها «قرقر»! قال (رفيق):

- أما أنا، فمطلوب من البوليس.

اتسعت عيني:

- ولِمَ؟

- لأني ساعدت صديقي.. في البداية التقيته في المدرسة. كان كل زملائي يسخرون منه عندما يرونه، لأنه كان ضعيفًا، وكان أيضًا بليدًا. لكني لم

أفعل مثلهم، أنا ترفقت به، وأصبح صديقي المقرّب، وأصبحت صديقه الوحيد. وذات يوم، ضربه أحد المعلمين لعدم إجابته على الأسئلة، ثم كالعادة سخر منه التلاميذ. وعندما دق جرس الفسحة، ونزلنا إلى الفناء، صعد هو إلى الطابق العلوي، ووقف على سور الشرفة. وبدا كأنه سيلقي نفسه.

صمت (رفيق)، فاستحثثته:

- وماذا بعد؟

- تجمّع الطلاب بالأسفل، والمدرّسون، والناظر.. وأمسكوا مكبّر الصوت وراحوا يحدّثونه من خلاله. الناظر يؤكد له أنه سينجحه هذه السنة. والمدرس الذي ضربه يكاد يبكي ويؤكد أنه حمار أن أخطأ بحقه. حتى التلاميذ تناوبوا على الاعتذار له في مكبِّر الصوت. ولكنه بدا عاقدًا العزم بشكل مهول.

فكروا، فكروا: من هو أقرب شخص له ويمكنه أن يقنعه بالنزول، وجدوا أنني هذا الشخص. فطلبوا مني أن أصعد إليه وأحدّثه بهدوء. قلت له كلاما عن "الحياة"، و"المستقبل" و"حب الناس"، وقد كاد أن يقتنع. ولكن الغريب، أني أنا لم أكن مقتنعًا.. نظرت إليه في علوّه: وكل هؤلاء الأوغاد كالحشرات تحت قدميه يرجونه ويتوسلون إليه.. وإن نزل، سيعتلونه كما كانوا من قبل. وجدت أنه الآن الأقوى. قدّرت أنه حتى إن مات. فقد مات عزيزًا، طالما لم يعش كذلك.

تسارع لهاث (رفيق) إذ يتحدث:

- ولذلك، وقبل أن يقتنع بكلامي، دفعت به بيدي.. فسقط.

ارتجفت عضلات وجهي، لم أستطع أن أتمالك نفسي، صحت:

- هذا منطق مجانين!

جاء عم «قرقر» من خلفنا.. رأى الذهول على وجهي، فصفع ولديه خلف عنقيهما، وقال:

- هل حكيا لكِ تلك الحكايات الخائبة؟ هذان المجنونان لا يريدان أن يعيشا في الواقع. الأول يظن أنه جزء من لعبة عصابات على ذلك المدعوق الكمبيوتر، والآخر يظن أنه بطل موضوع إنشاء عن "مساعدة صديق" طلبوها منه في المدرسة. لكن أنا سأعيدهما إلى الواقع عندما يمزّق الألم كل قطعة من جسديهما.

ثم دفعهما دفعًا إلى الحوش. وتعالت صرخاتهما، بالضبط كما كانت بالصباح.

* * *

obeikan.com

(٨)

في الصباح، جلست في حسرتي: كل الأبواب طرقتها.. لم يبقَ أي شيء.. حتى الذهاب للعمارة بلا جدوى لأنه من غير الممكن أن تصل خطابات جديدة من أمي.. لكن، مهلاً.. لو أنها على قيد الحياة، فمن المحتمل أن ترسل خطابًا لي.. بل، ولربما أذهب لأجدها عادت.. أليس كذلك؟

انكسرت عيني: هو كذلك.

ارتديت ملابسي، وتفحصت النقود التي في جيبي: فيما بعد، لن أملك حتى أجرة الميكروباص.

لمحني البواب فانتفض وقال:

- لم تصل خطابات والله يا ست «سارة».

أطلقت زفيرًا.. بترهل استدرت، لكنه استوقفني:

- لحظة! ست (وفاء) الكفيفة سألتني أمس إن كنتِ عندي.

سارع بالقول كأنما ينفي التهمة:

- أنا أنكرت، آه والله، لكنها قالت إنها -عدم المؤاخذة- شمّت رائحتك، وطلبت مني إن عدتِ ثانية أن أخبرك أن لديها معلومات تهمك.

صحت في سعادة:

obeikan.com

- حقًا؟

ثم انتبهت أنه قد يكون فخًّا من زوج أمي. ولكن لماذا تطاوعه السيدة (وفاء)؟ على أي حال: حتى الانسياق للفخ أفضل من أن تظل محللك سر. صعدت.

تأخّرَت قليلاً في فتح الباب. ثم ابتسمت ما إن فتحته:

- مرحبًا يا «سارة»! تفضلي!

تقدمت في وجل، بينما تقول:

- لا أحد بالمنزل.. خذي راحتك.

- أخبرني «جاد» أن عندك معلومات.

بدا الأسف على وجهها وقالت:

- يؤسفني هذا الذي أسمعه. أمك -الله يرحمها- كانت ست أميرة.

شعرت بالتوتر:

- لـ... لماذا تقولين ’الله يرحمها‘؟

- عفوًا يا ابنتي... زلة لسان. أنا أردت أن أتحدث معكِ لأخبركِ بأمر ما. أنا أول الأمر لم أربط بينه وبين اختفاء أمك، لكني فيما بعد فكرّت أنهما قد يكونا مرتبطين.

- وما هو هذا الأمر؟

- ليلة الحادثة. استيقظت من النوم على ضجة كبيرة.

obeikan.com

استدركت:

- الحقيقة أنها لم تكن كبيرة بالقدر الكافي لتوقظ إنسانًا، ولكن لأني...

وأشارت إلى عينيها:

- كما ترين، فإن حاسة السمع عندي أقوى من الآخرين. كانت هذه الضجة مثل: ثقل كبير يسقط من أعلى ويرتطم بالشارع.

سقط قلبي، تخدرت أعصابي، وأرهفت السمع بينما تتابع:

- خرجت إلى الشرفة أستطلع ما حدث.. لوهلة، لم أتبين أي صوت، وكأن الشارع خالٍ تمامًا حتى من القطط والكلاب. غير أني إذ ألتفت لأعود للداخل، سمعت صوت باب معدني ينفتح، وخطوات تخطو إلى الشارع. ثم صوت متقطع لسحب ثقل على الأرض، وكأن أحدهم يجر حِملاً، ثم يثقل عليه فيتوقف لحظة، ثم يعاود الجر، وهكذا.

وقدّرت أنه جامع القمامة يسحبها أو شيء كهذا.. لكني لاحقًا أعدت التفكير: القمامة لا تلقَ من أعلى، ولا تُجمع في هذا الوقت من الليل، وليس بهذا الشكل المريب!

انحنيت بقدر مهول، شعرت: وكأن هذا الثقل على ظهري أنا. حاولت أن أقم.. حاولت كثيرًا، وعلى الباب، هتفت ست (وفاء):

- مهلاً! انتظريني لحظة.

وراحت تتلمس الجدران غائبة في أحد الحجرات. ثم عادت حاملة كيس نقودها. ومدّت به يدها إليّ:

- ما هذا؟

- افتحيه وخذي مائتي جنيه.

- لا يا ست (وفاء). كثّر الله خيرك.

- هذه نقود أمك يا ابنتي! كانت أقرضتني إيّاهم لمّا تأخر عليَّ المعاش. والآن أردّهم لكِ.

***

إذ أتمدد على الأريكة في الليل، وأتطوّق بالملاءة.. لا أعد أشعر بشيء.. لم يعد بداخلي عصب متماسك، أو عرق ينبض، أو عضلة تعمل. لم يعد من أمل أن أمي على قيد الحياة.

أحيانًا أنسحب فلا أدري إن كنت متيقظة أم نائمة.. ثمة كلام كنت أريد أن أقوله، لكن مع الأسف ينزل تتر النهاية. تبدأ أحداث المسرحية. تقول المذيعة: "أعزائي القرّاء، أبث إليكم رواية «سارة» من هنا.. من أمام وجعي.. ٢٧ شارع السعادة. حي السيدة «سلوى».." تخطىء المذيعة تستدرك: "بل أقصد ميت لا حي" يحملني «قرقر» على ظهره ويلقيني أمام «جعفر» ويقول: "هاك ضحية اليوم!" يقذفني «جعفر» بقدمه قائلاً: "بل هذه ماتت من قبل".

أشهق شهقة عميقة. أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. أعي أين أنا، ومن أنا، أصرخ:

- أمي!

تزينني أمي للعرس، يمسك ولدا عم «قرقر» بذيل فستاني الأسود حاملين الشمع. تشتعل النار في الفستان فيضحكان ويقولان: "لكي تجعلي أبانا يضربنا". يقف «آدم» على قبر أمي ويضمم يديه بالدعاء قائلاً: "ألم أعدك أن نقرأ الفاتحة حين تظهر أمك؟" أجلس جوار عم «جعفر» في الكوشة، توزّع أم «لوزة» القهوة السادة على المدعوين. تقرصني «نعيمة» في ركبتي وتقول: "لكي تحصّليني في جمعتي"

- أم....!

أفتح فمي لأقول: "أمي" لكن لا يخرج صوت. تسألني (بسمة): "هل ابتلعت القطة لسانك؟". أفتح فمي لآكل وهمًا لكن لا أمضغ شيئًا. يسألني «آدم» "هل أعجبك الطعم؟". أفتح فمي لأفرغ معدتي لكن لا يخرج شيء. يسألني «خليل» "هل تنتظرين طفلاً؟". أفتح فمي لأتنفس فيخرج كل الهواء.. أختنق بسذاجة أسئلتهم: يا أغبياء، يا أغبياء، ألا تلحظون بأنني مت؟

- أمي!

يقف المفتش (كورومبو) منتفشًا. يحيي المتفرجين قائلاً: "ابقوا قابلوني في الحياة الآخرة".. ثم يطرح سؤال الحلقة: "كيف ماتت أم «سارة»؟"

١. ماتت في انهيار عمارة «لوزة».

٢. ماتت في حرب عصابات (قدري).

٣. ماتت في عينك! أنا أمي لم تمت.

- أمي! أمي! أمي!

أحاول أن أكتم صوتي، وأثبّت جسدي، وأبقي عيني جافة.

أسمع على البعد صراخ طفل، وخطوات أقدام.. لا أستطيع التمييز إن كان واقعًا أم حلمًا.. لكنها تقترب بشكل مريع.. إنها على باب مقبرتي بالضبط.. ثمة مفتاح يصل في الباب. ثمة لحظات فاصلة بين.. لا أدري بالضبط.. بين شيء وشيء. قفزت عن الأريكة. تلفحت بالملاءة. ركضت إلى آخر غرفة في المقبرة. انفتح الباب.

عبّق بكاء الطفل المكان. اختنق صوته. تمكن أخيرًا من أن ينطق:

- أرجوك! لا تتركني هنا!

انتفض جسدي بعنف. اقتربت بحذر: هذا صوت «يوسف» أخي. صاح «جعفر» بغل:

- سأربّيك!

ثم أسقط الصندوق إلى جواره. وأغلق الباب.

ضرب «يوسف» الباب بقبضتيه:

- لاا! أرجوك! أنا خائف.. أبي.. أبي!

من خلف الباب تسللت عبارات «جعفر» لمن حوله:

- لا أحد يتدخل. ابني وأربّيه!

تابع «يوسف» الطَرْق على الباب بعنف:

- لا تتركني يا أبي! أنا حرَّمت! حرَّمت!

حالة من الهيستيريا أصابت أخي. لا يكف عن الصراخ وقد بُحّ صوته فقط ليردد "حرّمت"، حتى وهو يسمع صوت الخطوات تبتعد. ينظر «يوسف» إلى الصندوق بفضول بريء.. ثم يعاود الصراخ: "حرَّمت"، "حرَّمت". يتلمس الصندوق بيده..

تغرق الدموع عيني مع كل كلمة من فمه، أو لمسة من يده للصندوق.. لا أحتمل أن أراه في هذه الحالة.. لا أعرف إن أرثي له أم أحمد الله أن جمعني به ثانيةً فأتمكن من احتضانه، أحاول أن أقترب مطمئنة، لكنه لمحني من البعد، فانتفض واقفًا وصرخ:

- لا تقترب مني! لا تقتلني! لا تقتلني أيها العَوّ!

آه، لا! الملاءة.. الدموع/لمعان عيني.. «يوسف» هل ظننتني... هو فقط لا يراني بسبب الظلام لكن حين أقترب سيعرفني.. صرخ:

- لا تقترب مني! أنا لا أريد أن أموت! لا أريد أن أمـ.....

انكتم صوته. ودوّى ارتطامه بالأرض.

- «يوسف»، لِمَ لا تجيب؟

- أمي، لِمَ لا تعودين؟

- «سارة»، لِمَ لا تموتين؟

* * *

obeikan.com

(٩)

ماذا يُقال!؟

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(١٠)

تنظر الممرضة إلى وجهي وتقول: "شاحبة"، تقيس نبضي وتقول: "متوقف". يهتف د. (أشرف): "عال عال.. امنحوها قرصين من هذا قبل الموت وبعده." تتقافز الأطفال حوله وتقول: "نريد الأقراص، نريد الأقراص.." يمسكون بمعطفه ويقولون: "رحمة ونور يا باشا"!

يفتتح القاضي التحقيق في قضية «يوسف». ينظر إلى المتهمين خلف القفص في السماء: أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر. يصرخ الادّعاء: "القتل للأخ الغادر!" يقول الدفاع: "ليسوا إخوة أشقاء." يقول الادعاء: "عندك جريمة كاملة.. هذا القتيل، وهؤلاء القتلة، وهذه أداة الجريمة." يقول الدفاع: "ليست هناك أداة جريمة." يقول الادّعاء: "لأن الرمي من أعلى لا يحتاج إلى أداة." يحكم القاضي بالإعدام على «يوسف». أصرخ: "هذا ظلم! ظلم! هل تعدم القتيل؟" يقول القاضي: "ليرتاح."

يسقط «يوسف» على الأرض. أقترب منه بذهول. أجس نبضه بذعر. فجأة يفتح عينيه. أنتفض. يضحك. ألتقط أنفاسي. يغرق في الضحك: "خدعتك هاه! هل صدّقتِ أني مت؟" يزيح الملاءة عني: "تمثلين دور العَوّ بشكل رائع يا «سارة»، والآن، هل تستطيعين أن تمثّلي دور (عزرائيل)؟" يصيح «آدم»: "كفاية! لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية".

طرقات! طرقات!

ألا يعرف المرء يموت قليلاً؟

فتحت الباب، وعدت أضمم «يوسف»، وأموت.

وقف «قرقر» بالباب. يتفحص ما يراه بدهشة. مال إلى «يوسف» يجس نبضه، ويصيح:

- يا نهار أبيك أسود! أقتلتِه؟

أشحت بيدي:

- ششش! امشِ! امشِ!

أمسك بيدي وأقامني بعنف:

- من الذي يمشي خرب الله بيتك! قتيل عندي في المقابر. وسين وجيم وليلة لن تمر. تعالي عندي في الحوش حتى يأتي أبوه في الصباح ونرى ماذا يحدث!

أجلسني «قرقر» أمامه. لكني لا أريد أن أجلس. أريد أن أموت. قال:

- لماذا قتلتِه؟ إنه طفل! حرام عليكِ! ألا يوجد بقلبك رحمة؟

انزويت في ركن على الأرض، ضممت الملاءة. إنها لا تكفي.. كيف يدفأون من محض كفن، برغم برودة أجسادهم؟

***

opeikan.com

ربما قضيت يومين أو أكثر في الحمّى. أتقلّب على الأريكة ولا أشعر بشيء مما يدور حولي، لكني أول ما استعدت روعي وتذكرت الأحداث المريعة التي حدثت ركضت إلى «قرقر». وسألته أن يخبرني ما حدث بالتفصيل. فقال:

- أبدًا، لا شيء. مرّت على خير.

- أسألك أن تخبرني بالتفصيل.

جذب من الشيشة عدة أنفاس، وقال:

- عندما جاء الرجل، وفتح باب المقبرة ليجد الصبي جثة هامدة. انهار وسكب عليه دمعتين، وقبّله قبلتين، ثم تلفت حوله وقال: نريد أن ندفنه.

- ألم يعلم أنني...؟

- لا، لقد منحني المعلوم أيضًا لأتستر عليه.

- بهذه البساطة؟

استدار إليّ بجذعه:

- ماذا حدث؟ ما لكِ؟ واحد مات الميتة الطبيعية، ودفنّاه!

أدرت نظري إلى الفضاء:

- هل تقول إنه عرف أن ابنه مات، فحمله ودفنه ومنحك نقود؟

- اللهم طوّلك يا روح! ألن ننتهي من هذا؟

- وبالتأكيد أنه سيعود فيقول إن ابنه هرب!

obeikan.com

قام «قرقر» ثائرًا:

- ليقل أو سحقًا بينه وأن يقل! ما دخلي أنا!

استدرت مسرعة.

***

جريت إلى الحوش. بحثت عن المعول فوجدته في أحد الأركان. نزلت السلالم إلى المدفن، وأعملته في الأرض: كما جثة «يوسف» في مكان ما من هذه التربة، جثة أمي أيضًا هنا.

ولئن وجدتها، لن أرحمنَّه، ولأدفعنَّه ثمن يُتمي وتشرُّدي ودماء أمي وأخي.

أضرب المعول في الأرض بكل الغل الذي أملكه تجاهه: عندما يقذف بالسيجارة على الأرض: أضربه. عندما يُبكي أمي: أضربه. وعندما يقول "مثلك يجب أن يتربى"، "دورك قادم"، "اخرسي": أضربه، أضربه، أضربه.

وعندما ضربته هذه المرة، اصطدم المعول بشيء في الأرض.. رميت به، أزحت التراب بيدي.. أزحته بهدوء، ورقة، ولين.. لأن هذا الجسد لا يستحق إلاّ الرفق.

بصعوبة أخرجها. أبسطها على الأرض:

- دومًا قريبة يا أمي، دومًا جواري.

أحاول أن أعيد دموعي للداخل:

- أنتِ بخير الآن يا أمي.. أنتِ في سلام.

obeikan.com

أتوسد صدرها، وأضمها بكل جسدي:

- أنا بخير الآن يا أمي، داخل هذه المساحة، أنا في سلام.

***

أقف، أباعد ساقيّ قليلاً من أجل التوازن، لكني أسقط. أحاول أن أصوّب قدمي إلى الأرض، لا أجدها. أحاول أن أنصب ساقيّ، لا تستقيمان. أميل بجذعي للأمام لأدعم رجليّ بيديّ.. وإذ أضغط عليهما من حيث الركبة استقاما. لكنهما لم يتحركا. ضغطت عليهما من خلف الركبة تحركا، لكنها لم يستقيما، فبادلت بين هذا وذاك.

خرجت، أخطو تجاه العَمَار، تتبعني النظرات الذاهلة. قال «قرقر» في سخرية:

- ما بالك تسيرين هكذا؟ هل قُصِم ظهرك؟

لا أعيره انتباهًا، أسير، أسير.

***

أسقط في القسم. أتماسك. أبذل جهدًا كبيرًا لكي أكوّن في عقلي جُملاً مفيدة، ثم أنطقها خالية من العويل، والنحيب، والنهنهات، وغير ملوّثة بتراب جسدي، أو مبللة بالدموع، ولا يتخللها النداء:

- أمي!

أرشدهم إلى المقبرة التي تحوي جثتي: أمي، وأخي. أعترف لهم بكيفية موت أخي. أخبرهم بالاتفاق الذي تم بين «جعفر» و«قرقر» لدفنه. أطلب

شهادة جارتي السيدة (وفاء). وأرشدهم إلى مكان السوارين الذهبيين في المقبرة.

يرسلون معي قوة لمداهمة القبر. يحرّزون الجثتين، والسوارين. يقبضون على «قرقر»، و «جعفر».

تتطابق مواصفات الجثة مع مواصفات أمي. ويخبر الطب الشرعي أنها ماتت مترديه من أعلى. وأن موعد الوفاة، هو ذات موعد الاختفاء. ويؤكد الطب الشرعي أن أخي مات بالسكتة القلبية.

يوضح «قرقر» أنه ليس شريكًا في أي من الجريمتين. وأن «جعفر» دومًا ما يأتي حاملاً أطفال فيرمي بهم داخل المقبرة، ويعود بعد يوم أو اثنين يحملهم عائدين. يؤكد «قرقر» أنهم دائمًا ما يخرجون أحياء؛ أنه لا يقتلهم، وإنما فقط يربيّهم. ثم لعن الحظ النحس الذي قتل الطفل في المرة الأخيرة.

يروي أنه ذات يوم جاء «جعفر» حاملاً سيدة بين يديه. فوقف له «قرقر» متربصًا. فمنحه «جعفر» ثلاثمائة جنيهًا وطلب منه أن يساعده في الدفن. لكنه أبى، إلّا أن يوصلهم خمسمائة.

يلطم «جعفر» خديه ويؤكد أنه بريء... وأنه لم يقتل لا زوجته، ولا ابنه. وإنما ذات الحظ النحس يوقع الجثث في طريقه. فيضطر أن يحملها ويدفنها إكرامًا لها. يشدد «جعفر» على أن إكرام الميت دفنه.

يحكي أنه عندما خرج من المنزل بعد المشاجرة يوم الحادثة كانت أمي حيّة وتمارس نشاطًا حيويًا يخص

obeikan.com

- فقط- الأحياء: البكاء. تمشّى إلى المقهى القريب في الشارع الخلفي، وانتقل منه إلى نادٍ ليلي، ثم آخر وهكذا. ثم عاد قرب الفجر ليجد أن أمي ليست بالبيت.

يحكي أنه بعد يومين ذهب إلى فيلاه القريبة التي يستخدمها لنزواته فاكتشف جثة أمي، وقد فاحت رائحتها وتغير لونها. فحملها وجاء إلى المقابر يدفنها. يقول إنه خشي أن يبلّغ فيتم اتهامه فيها.

عن«قرقر»: شهادتي، وشهادة «جعفر»، واعترافه الخاص ساعدوا في الحُكم عليه بالسجن لتستره على جريمة قتل. آه، واتضح أن اسمه (القرموطي).

عن «جعفر»: شهادة الجيران بالمشاجرة ليلة الحادثة، وشهادة الجارة الكفيفة بسقوط أمي وصوت سحبها، وشهادة «قرقر» بحضور «جعفر» للمقابر حاملاً الجثة، واعتراف «جعفر» بوجود الجثة في فيلاه ودفنها، وجثة أمي الموجودة في مدفن «جعفر»، وشهادتي بإغلاق «جعفر» باب الغرفة عليّ وأخي أثناء المشاجرة، ثم غيابه عن المنزل حتى ساعات الفجر الأولى، وفشله في إيجاد شاهد يثبت أنه كان معه في إحدى الساعات من ليل الحادثة. وظهور الخطابات الغرامية التي تم اعتبارها دافعًا للجريمة. كل هذا ساعد في الحُكم عليه بالإعدام.

عنّي: ردي لسواري أمي، وشهادة ست «فتحية» أنها رافقت أمي في بيعها للسوارين الآخرين، وشهادة الصائغ أنها باعتهما بنفسها، وشهادة الطب الشرعي أن أخي توفى بالسكتة القلبية، وشهادة «قرقر» أنه يؤجر لي الحوش وأن إقامتي فيه لم تكن متعمدة من أجل إخافة أخي التي أدت إلى

وفاته، وقدومي للاعتراف وتسليم نفسي والإبلاغ عن كل ما حدث، ساعدوا في ألَّا يتم اعتباري مذنبة. وأن يتم الإفراج عني.

فضّلت أن أبقى جوار أمي وأخي، وأن أستقر بشكل دائم في المقابر. تعلمت حرفة مناسبة لهذا المكان، وصاروا يطلبونني بالاسم، كلما توفت سيدة.

أقوم بالتغسيل، والتكفين على الطريقة الشرعية، وأحصل على قدرٍ يسير من المال، بقدر ما يكفي.

وعن «آدم»: اتفقنا على الزواج. وأن تكون ليلة تنفيذ حُكم الإعدام في «جعفر»، هي ليلة زفافنا. كما اتفقنا ألَّا نترك (بسمة) وحيدة، وأن تعيش معنا كابنة لنا.

أؤكد، أننا اتفقنا على كل شيء معًا، وأني لم أفرض عليه شيئًا على الإطلاق. لذلك، بالضبط لم يكن مبررًا أن يختفي ليلة الزفاف!

* * *

(١١)

الليل: مبهج، لأنه بقدوم الصباح سينفذ حكم الإعدام بقاتل أمي، وأبغض خلق الله إلى قلبي: «جعفر».

وأنا، مشغولة جدًا.. منْ يلوم العروس؟

«آدم» كذلك لا يبدو بالجوار، لابد أنه مشغول بالمثل. أعمل على تنظيف الصالون، أقوم بمسح الحوش، تلميع الرخام، أتوقف، ألتقط أنفاسي.. أشعر بالتوق الشديد لـ «آدم».. أصبّر نفسي: بضع ساعات ولن أحتاج لأن أتوق إليه ثانية.

أشعر بحفيف خلفي، أستدير هاتفة:

- «آدم»

لكني أصطدم بـ (بسمة) واقفة في ثبات، أعتذر:

- عذرًا يا جميلتي، ظننتك «آدم».

أستدر وأتابع التنظيف:

- بعد الزواج تسكنين معنا، ونصبح أسعد أسرة في الدنيا: أنا، وأنتِ و «آدم»...

أضرب الصالون بيدي بينما أقول:

- وستذهبين إلى الأطباء، وتُشفين، وتتمكنين من النط...

تختلط أصوات الضرب، والضجيج بالخارج، بصوت غريب:

- لا تحلمي!

ألتفت بدهشة، أنظر إليها:

- بسمة! هل تحدثتِ؟

تنظر لي بثبات، ولا تجيب. أهز رأسي وكأني أطرد الأفكار الغريبة أو الأرواح الشريرة، أتشاغل بتنظيف الصالون. تأتي تفعل مثلي.. أرفع يدي، ترفعها. أهوي بها على الصالون، تهوى بها على وجهي.

أستدير بكامل جسدي إليها وأصيح:

- هل جننتِ؟

تستدير بكامل جسدها إليّ وتصيح:

- هل جننتِ؟

تغزو القشعريرة جسدي، ينتابني خوف غريب، أركض إلى الخارج. إلى حوش (الجمّال) حيث يسكن «آدم». تصادفني امرأة على الباب، هي ليست ساكنة هذا الحوش، ومع ذلك أشعر أني أعرفها. أسألها:

- هل «آدم» هنا؟

تسألني:

- «آدم» من؟

obeikan.com

- الذي يسكن هنا..

أحاول أن أصفه لها:

- الفتى الذي.. الذي...

يلحقني عم (مغاوري) التُرَبي الجديد.. يأخذني من أمام السيدة، قائلاً:

- لا مؤاخذة يا هانم.

ويدفعني من أمام الحوش قائلاً:

- ما هذا الذي تفعلينه؟ هل تريدين فضحنا؟ هذه زيارة لحوش (الجمّال)، والسكّان يختبئون عندي في الحوش.

أتذكر بالفعل هذه السيدة، هي أم الفتى الذي تمَّ دفنه في أول يوم لي هنا، الميت الأول لي كما قالت «نعيمة» ! أتجه إلى حوش التربي قاصدة «آدم». ولكني ألمحه بطرف عيني. فأستدر في سرعة. أجده قادم وبجواره الشيخ (منجد) المقرىء. أقبل عليه وأزفر في ارتياح:

- أين كنت يا «آدم»؟ لقد قلقت عليك.

يشير إلى الشيخ ويقول:

- كنت أحضر المأذون.

ألتفت إلى الشيخ (منجد) في ذهول، أنقّل النظر بينه وبين «آدم»، وأقول بتشكك:

- لكن الشيخ (منجد) مقرئًا وليس مأذونًا.

opeikan.com

- أعلم، ولهذا أحضرته.

أسمع صوت صراخ من الحوش الخاص بي، أركض و «آدم» إلى هناك. يصعد إلينا الصراخ من تحت الأرض، وكأنه يدعونا للنزول. أنزل السلالم إلى المدفن. يهالني المنظر: (بسمة) وقد نبشت قبر أمي، جالسة تتناول أشلائها. أشهق في جزع، أخبّيء وجهي في صدر «آدم». يطمئنني:

- لا تخافي! اطمئني! هذا لا شيء...

أبعد وجهي عنه:

- كيف لا شيء؟

أشير إلى الموضع:

- ألا ترى؟ ألا تـ....

أقضم عبارتي.. بالفعل لا شيء، و (بسمة) جالسة في سلام، تبني بيتًا من الرمال.. أشعر بالدنيا تدور برأسي.. أبسط ذراعيّ لأمسك بالدنيا، لكني لا أحيط بأطرافها. فأقدّر أنني لو أمسكت رأسي قد يمنح نفس تأثير الإمساك بالدنيا. أحاول تصويب يديّ إلى جانبي رأسي لكني لا أستطيع، لا أستطيع. أدفن رأسي في صدر «آدم» وأبكي:

- «آدم».. إنني أرى أشياءً غريبة في الأيام الأخيرة..

يقول مطمئنًا:

- هذا طبيعي، مع اقتراب موعد إعدام «جعفر».

Obeikan.com

أردت أن أسأله: وما علاقة إعدام «جعفر» بما أرى، لكن خطف بصري منظر (بسمة) تتلفح بكفن أمي وتجرجره من خلفها مرددة:

- أنا العَوّ!

أجهش بالبكاء، أفتعل ضحكتين، أصفّق:

- أحسنتِ يا (بسمة)! لقد نلتِ مني!

يصرخ «آدم»:

- كفاية! لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية!

أحس إحساسًا قويًا أني سمعت هذه العبارة من قبل فلا أدري إن كنتُ سمعتها فعلاً أم أنها هي الـ ديجا-فو..

أبسط يدي في عدم فهم، أبعثر كلمات:

- ممثلة؟ رواية؟

تبسط يدها في عدم فهم، تبعثر كلمات:

- ممثلة؟ رواية؟

أنظر إليها، أهم أن أنطق، لكنها تبادرني:

- اخرسي!

تصدمني العبارة. أصمت لحظة. أهم أن أنطق من جديد، فتعيد:

- قلت لكِ: اخرسي، اخرسي..

obeikan.com

في كل مرة تصفعني عبارة: "اخرسي". في كل محاولة لمساعدة أحبّائي. الصمت، اليُتم، الوحدة، العيون المنكسرة.. كل هؤلاء: أنا، أنا.. ارتجفت عضلات وجهي.. قلتُ لها بصوت مرتعش:

- أنتِ...؟

أجابتني بزفرة ارتياح:

- أنتِ.

رفع «آدم» الخصلات عن عيني، واقترب بجذعه قائلاً:

- كم لكِ من وجوه يا «سارة»؟

ابتعد قليلاً، رفع إصبعه إليّ متسائلاً:

- واحد؟

بسط يده تجاه بسمة:

- اثنان؟

طوى يده لتواجه صدره:

- ثلاثة؟

خذلتني ساقاي، استندت إليه:

- لا! أنت لا يا «آدم»! لا! لا!

غزى شقٌّ صدره:

obeikan.com

- أنت الوحيد الذي أحببته، الليلة زفافنا.

تسرّبت الشقوق إلى جسده كله، وإذ أستند إلى صدره، سقطتُّ.

***

نقرت (بسمة) على ظهري، رفعتُ رأسي في تثاقل، قالت:

- مبروك.

- للزفاف؟

- بل للإعدام.

أومأت برأسي، وعدت أميلها. لكنها عادت تقول:

- حدّثيني عن أول مرة رأيته فيها.

- «جعفر»؟

- بل «آدم».

ضيّقت عيني متذكرة.. ذاكرتي بهذا الصدد مشوشة:

- أظن أني كنت أقرأ حين سمعت أصواتًا، ورأيته من النافذة..

- وماذا كنتِ تقرأين؟

أدرت عيني حولي، فاتسعت حماسًا.. صعدت إلى الأعلى، فتحت المرجع النفسي، قرأت بصوت مرتفع:

obeikan.com

"وكثيرًا ما يسمع مريض الفصام أصواتًا وهمية، وقد يصاحب الهلاوس السمعية هلاوس بصرية. ولصاحب الشخصية الفصامية علاقات إجتماعية مضطربة."

ضممت الكتاب، ورفعت بصري إليها قائلة:

- ولكن أمي هي المصابة بالفصام.

قالت بحزم:

- أكملي.

أطعت، فتحت الكتاب:

"ويقول د. (أشرف أبو النور)، الأستاذ بكلية الآداب: أن هذا المرض مزمن، وترجّح الدراسات أنه وراثي."

تغلق بسمة الكتاب بظفر:

- أرأيتِ؟

تتنهد:

- ومع هذا، ليس هذا ما أردتُ سماعه، أريدك أن تجتهدي في تذكّر الأبعد: أنتِ رأيتِ «آدم» قبل ما حكيتِه، وقرأتِ كلامًا قبل ما قرأتِه... فتذكّري.. تذكّري..

اعتصرت ذهني:

- لا أذكر! لا أذكر!

obeikan.com

- حاولي.. حاولي..

التفتُّ إليها بحدّة:

- وما الجدوى! هاه! ما جدوى الذكريات عن وهمٍ!

لوّحت بأصابعها في وجهي:

- يا ويلكِ إن لم تتذكري! يا ويلكِ!

انهرت جالسة.. «آدم»، ذاك الشاب الجميل الحنون في الجلباب الأبيض.. «آدم» الذي فقد أمه. «آدم» الذي يسكن في حوش (الجمّال) وفي إجازة من العمل ولا يمكنه أن يساعدني بالمال، لكنه يمنحني دعمًا نفسيًا.. «آدم» الذي ظهر في نفس يوم وصول ميّت عائلة (الجمّال) الجميل الحنون في كفنه الأبيض. الميت الأول الذي كالحبيب الأول.. لا يُنسى! إنني حتّى، أسمع: ولولات الأم.

«آدم»، صاحب العبارات الرصينة التي تأسرني ببلاغتها، وتشعرني بالألفة تجاهها وكأنني سمعتها من قبل..

أفتح رواية «سارة» وأفر الصفحات.. تطالعني عبارات يوجهها "همّام" بطل الرواية لـ "سارة". عبارات جررتُ تحتها خط. أقرأ بصوت عالٍ:

- جانبها؟ أي جانب؟ إن للإنسان جانبين لا جانب واحد!

- وهذا حق كله. إن الفتاة لمليحة ولا نكران في ذلك. ولكن!

- إن وعدتني أن أجني للصبر ثمرة، فأنا أصبر من أيوب.

- على كل حال، لست بآسفٍ لجنونك!

obeikan.com

- إن الذين ينصفونك في الدنيا قليلون.

- كفاية! لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية!

- كم لكِ من وجوه يا «سارة»؟

- يلوح لي أني...

يشاركني نطق العبارة الأخيرة صوت آخر من خلف ظهري، صوت «آدم» بالتحديد. استدرت بحدّة. صمَتْ. صرخت:

- لماذا عدت! ماذا تريدون مني!؟

قال:

- يلوح لي أني أعجبتك، وأنك تستبقيني!

صرخت:

- لاااا! دعوني! لماذا جئتم! دعوني...

قال في ألم:

- جئنا من أجلك يا «سارة»، جئنا نرشدك للحقيقة..

أطلق زفيرًا:

- في البدء كان خيط البحث عن صورة، وكنت أسعى فقط لأن تفتحي الصندوق وتجدين الخطابات، أن تعرفي نفسية أمك، بل ونفسيتك أنتِ المصابة بذات المرض الوراثي.. أن تلاقي الطبيب في شارع السعادة.. أنا حتّى لمّحت إلى أن المعنى المجازي هو المطلوب وليس شارع مدرستك.

obeikan.com

(بسمة)، التي ابتسمت ملء فمها حين سألتها عن اسمها لكي تفهمين أنه: «سارة».. (بسمة) أرشدتك إلى قبر أبيك برغم معالمه المطموسة، وإلى عبارة أمك على الشاهد: "هنا، أرقد أنا": في المقابر.. أرشدتك إلى طريقة وفاة أمك سقوطًا من أعلى، حاولنا بكل الطرق، حاولنا! ماذا كان باستطاعتنا أن نفعل أكثر؟

قلت:

- ونجحتم، وعرفت الحقيقة، وفجرًا سيعدم قاتل أمي، فارحلوا.

- ليتها كانت الحقيقة!

قلت في هيستيريا:

- لا تتلاعب بي... امضِ... امضِ أو أقتلك.

نظر للأرض:

- هل يرضى ضميرك عن الأدلة المزيفة التي أُعتمِد عليها لاتهامه، أو الأدلة الحقيقية التي أخفيتِها لتبرئته؟

الخطابات التي توضح أن لها عشيقًا.. دافع القتل.. ألا تعلمين أن أمك كاتبتها وليس عشيقًا.. وأنه لا يمكن أن يكون دافعًا للقتل لأنها لم تُكشف أبدًا إلا بعد القتل؟.. أليس دليلاً مزيفًا؟

سلسلة المفاتيح التي كانت على الطاولة حين دخل زوج أمك ليلة الحادثة.. لو أنه قتلها ونقلها إلى الفيلا فهو يحتاج إلى مفتاحي السيارة والفيلا، أليس كذلك؟ أليس دليلاً حقيقيًا؟

شهادة الجارة الكفيفة عن صوت السحب المتقطع.. وكأن الجثة يثقل سحبها على القاتل فيتوقف، ويعاود.. هل يعجز «جعفر» العفي عن سحب أمك؟

قلت بهدوء:

- قلت لك أن تمضي... قلت لك أن تمضي أو...

وفي أقل من ثانية التقطت المعول ورفعته إلى أقصى حد ثم هويت به فوق رأسه قائلة:

- أقتلك.

انشقت رأسه إلى نصفين. اهتزت الصورة.. التأم، قال بأسف:

- خبيرة بالقتل صرتِ يا «سارة»: أنا، و «جعفر»، و «يوسف»، و...

- لا! لا تقل!

- وأمك.

- لا! لا! لا!

***

يقول (العقّاد) في رواية «سارة»:

"مواجهة الحقيقة هي أصعب المصاعب في هذه الدنيا

أولاً: لأننا في الغالب لا نعرف ما هي الحقيقة.

obeikan.com

ثانيًا: لأننا في الغالب لا نحب أن نعرفها إلا مضطرين، حين نيأس من قدرتنا على جهلها ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الأمر أن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها.

ثالثًا: لأننا إذا عرفناها ففي الغالب - أيضًا- أنها تكلفنا تغيير عادة من العادات، وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت. فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير ما تعودناه، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة".

* * *

obeikan.com

(١٢)

لا!

لا!

لا!

***

obeikan.com

(١٣)

أمي تطرق الباب من الخارج، وبعد قليل سأطرقه أنا من الداخل، حين يخرج هذا الوحش إليها، ويغلق بيننا بالمفتاح. أطرق بقبضة أوهن مما يجب. أصرخ بصوت أضعف مما ينبغي:

- دع أمي أيها اللعين، لا تقربها!

تتصاعد صرخات أمي، تتهاوى قبضتي عن الباب.. أنكتم.

.

.

.

يطلق «جعفر» آخر سبّة بذيئة، ينفتح باب الشقة، ثم ينغلق. تهدأ صرخات أمي، وإن لم يهدأ نحيبها. أميل إلى ما تحت الفراش داعية «يوسف» للخروج، لكنه يتشبث بالبقاء:

- لا، دعيني! سيضربني.
- لا تخف يا «يوسف». لقد خرج.
- بل سيعود ليضربني.
- ولماذا يضربك، هو كان يتشاجر معي أنا وأمي.

obeikan.com

- ولكنه قال دوري قادم.. لازال دوري قادمًا.

- نعم قال، لكنه نسي، هيًّا يا حبيبي تعالَ معي.

ألتقط كفه، وأساعده على الخروج. جسده كله يرتعش، أضعه في فراشه، وأضمم عليه الغطاء، فيغمض عينيه ويستكين. أطرق باب الغرفة برفق:

- افتحي لي يا أمي.

تقترب خطوتها الواهنة من الباب. تدير المفتاح، وتضممني بقوة. تنظر بذعر إلى الدماء على وجهي. تأخذني إلى الحمّام، تغسل لي وجهي، وتجفف دمائي ودموعي، وإن لم تعنِ بتجفيف دمائها ودموعها هي.

تلتقي عيني بعينها فتجهش بالبكاء. تخطو إلى النافذة. تفتحها وتنظر إلى السماء، تهتف:

- يارب.. ارحمني! أتوق إلى الخلاص يارب!..

أذهب إليها. أهمّ أن أنطق شيئًا لكني -حين الحاجة- بلا صوت. أربّت على ظهرها.. يرتجف جسدها كله بالنحيب:

- يقولون بالحياة متع كثيرة ولم أرَ متعة واحدة يارب! تعبت من الحياة.. خلّصني يارب!

انتقلت الرجفة إلى ذراعي. شعرت بها تتصلب على ظهرها، فقدت السيطرة على أطرافي، أو هي خرجت عن سيطرتي.. لأني أمرتها أن تتوقف. أمرتها ألا تفعل. أدرات أمي رأسها متعجبة من تصلُّب ذراعي حول ظهرها، من عنف قبضتي على ذراعها، نظرتُ إلى عيني أمي.. لم أرَها خلف

الدموع، دققت بنظري أكثر علّي أراها من خلفها.. انتهزت أطرافي فرصة انشغالي بالنظر في عيني أمي، فغافلتني و... دفعَتْها.

كالروبوت التقطتُ المفاتيح، نزلتُ إلى أمي، سحبتها حتى وضعتها في سيارة «جعفر»، انطلقت إلى فيلاه القريبة. هذا هو المكان المنعزل الذي أعرفه. لم أفكر في مكان آخر، لم أفكر أصلاً.. أو ربما فكرت كما يفكر الروبوت.

عدت إلى المنزل. اعتليت فراشي، ونمت كما ينام الروبوت، حين ينتهي من قتل أمه.

.

.

.

فتحت عيني قليلاً، نظرت حولي: كنت على فراشي، وأخي نائم في فراشه، ويبدو من العتمة أن الوقت ليل. رفعت الغطاء وجريت إلى باب الغرفة فانفتح.. بحثت بعيني عن أمي، ناديت كثيرًا:

- أمي!

* * *

Obeikan.com

obeikan.com

(١٤)

تتسلل إلى أذني قراءة قرآنية. أتتبع الصوت فأصل إلى حوش (الجمّال). أقف على الباب بوجل فتدعوني السيدة التي صرت أعرفها للدخول. أجلس جوارها وأصغي..

ينتهي الشيخ (منجد) من قراءة الربع، فيدعونا إلى قراءة الفاتحة. أبسط يدي للقراءة، فتغلبني ضحكة: "ها أنا مع أم «آدم» نقرأ الفاتحة!"

تنظر إليّ السيدة نظرة حادة، فأعتذر، وأبكي على سبيل المجاملة. يتصاعد نحيبي.. تميل إليَّ لتهدّئني، ينقلب كل من بالحوش لتهدئتي لكني لا أستجيب، لا أنتهي؛ لم أشبع بعد من البكاء.

أنادي على أمي.. هل رأيتها؟

ينحني الشيخ (منجد) عليَّ، ويضع يده على رأسي.. ويتلو رقاه. يخلو الحوش من الزيارة.. يسألني:

- ما بكِ يا ابنتي؟

أتلمس وجهه بأناملي:

obeikan.com

- هل أنت حقيقي؟

- نعم.

- وأنا؟ هل أنا حقيقية؟

- بالتأكيد.

تتصاعد ضحكتي:

- لا تثق جدًا. ربما أنت من يتوهم!

يُسقِط كلماتي المبهمة، ويعود ليسألني:

- من أغضبك؟

زفرت خلاصًا من البكاء، واستعدادًا لحديث هام، استدرت إليه بجزَعي كله وقلت:

- ماذا تقول في رجل، فعل كل الموبقات، ولم يسلم منه حتى ابنه من صلبه، واستحق الموت ألف مرة، ثم حُكم عليه بالإعدام؟

قال مبتهجًا:

- هذا عهد الله! وسيدنا النبي يقول: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته".

- عظيم! فماذا تقول فيه إن كان أُعدم في جريمتي أنا؟

obeikan.com

تبغّض وجهه وقال:

- إياكِ والظلم يا ابنتي! إياكِ والظلم!

ثم قام، ورحل.. نظرتُ إليه إذ يغادر:

- وأنا!

أنا يا شيخ (منجد) لم أُظلَم!؟

***

أمي تقول، أن (عبّاس العقّاد) يقول:

"أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة، وحياة واحدة لا تكفيني، والقراءة. دون غيرها. هي التي تعطيني أكثر من حياة"

والآن، إذ أجد صعوبة في أن أردم مجرى في وجهي يسمى "دموع"، أو أشق أخدودًا يسمى "ابتسامة"، أجد أن (العقّاد) كان ساذجًا.. فسواء قرأت، أو عشت في قصة، أو في أحلام يقظة، أو في لعبة افتراضية، أو في ذكرياتك، أو مع مخدراتك، أو صديق وهمي، أو حبيبة ميتة، في النهاية، ستعود لنقطة الصفر: حياتك العفنة.

***

obeikan.com

قبل ساعات من إعدامه، أتوجه إلى القسم، أطلب وقف الإعدام. وأدلي بتفاصيل جديدة.

وعندما حصل على البراءة، أدرك «جعفر» . ربما للمرة الأولى بحياته - أن الله موجود- وأنا، تحدد موعد إعدامي بعد ستة أشهر.

من بين البشر، محظوظة أن عرفت موعدًا أقصى لحياتي.

يخبرونني بوجود زيارة؛ فأندهش. أتبعهم، فأجد الشيخ (منجد). تغمرني السعادة وأبتسم، يشرق لرؤيتي ويقول:

- طوبى لمن برّ والديه!

تسقط عضلات وجهي:

- ألا تعرف لماذا أنا هنا؟

لا تزول البهجة عن ملامحه:

- بُشرَى من الله ورسوله للبار بوالديه!

ترتجف أوصالي، أصيح:

- أنا قتلت أمي! قتلتها! قتلتها!

لا يهتز:

obeikan.com

- سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام قال: "من قرأ القرآن، وعمل بما فيه، أُلبِس والداه تاجًا يوم القيامة، ضوؤه مثل ضوء الشمس في بيوت الدنيا، لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟"

تتسع ابتسامته الملائكية، ويغادر.

***

أجلس في الزنزانة، أنتهي من حفظ الصفحة، أمنح المصحف لـ «آدم»، وأطلب منه أن يراجع لي.

تمّت

* * *

obeikan.com

obeikan.com

سيرة أدبية

سالي عادل

- تاريخ الميلاد: ١-١-١٩٨٦
- الجنسية: مصرية.
- إيميل: horrorandlove@gmail.com
- مدونة: http://kesasro٣b.blogspot.com

مؤهل:

- بكالوريوس إعلام، جامعة القاهرة، قسم الصحافة والنشر، دفعة ٢٠٠٧، تقدير عام: جيد جدًا.

مشاركات أدبية:

- مؤلفة سلسلة روايات (الحب والرعب) عن المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر.
- كاتبة قصة أسبوعية بمجلة (بص وطل) الإلكترونية.
- عضو لجنة تحكيم مسابقة (النورس) للإبداع الأدبي.
- عضو لجنة تحكيم مسابقة (فنون أون لاين) للقصة القصيرة.
- مشاركة بورشة (الحكاية وما فيها) للقصة القصيرة.
- مشاركة بورشة دار (الروضة) للسيناريو.

obeikan.com

- منظمة لأمسيتين قصصيتين عن أدب الرعب في مكتبة البلد بتاريخ ٣٠ يوليو، و ٨ أكتوبر ٢٠٠٩.

جوائز:

- المركز الثالث لمسابقة وزارة الثقافة لعام ٢٠١٢ عن رواية "شخص مثالي للموت" – مع ملاحظة حجب المركزين الأولين.
- المركز الأول لمسابقة السلاسل الأدبية لدار الروضة لعام ٢٠١١ عن رواية "شايب بالأحكام".
- جائزة خاصة بمسابقة نجلاء محمود محرم للقصة القصيرة لعام ٢٠٠٧ عن قصة: "أشياء تلمع".
- المركز الأول لمسابقة ساقية الصاوي لعام ٢٠٠٥ في القصة القصيرة عن قصة: "اقترب ترَ أفضل".
- جائزة مجلة علاء الدين للقصة القصيرة للأطفال عام ١٩٩٩.
-

إصدارات:

- روايات (العطايا السوداء)، (كاهنة التيتانيك)، (أمنيات أبدية)، و (الوصول إليك) من سلسلة (الحب والرعب) عن المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر.
- قصة أطفال (الصياد والسمكة) عن دار الأمين للطبع والنشر.
- رواية (العطايا السوداء) نشر إلكتروني عن دار أدباء جيران عام ٢٠٠٩.

***

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

نون للنشر والتوزيع

Noon_publishing@yahoo.com

ت- ٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢   ٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧

obeikan.com